اللؤلؤ المنثور

رواية

لطيفة خالد

(الـطبـعـة الأولــى)

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة .

اسم الكتاب : اللؤلؤ المنثور
اسم المؤلف : لطيفة خالد
الإخراج الفني : إكرام عيد .
رقم الإيداع : ٢٠١٩/١٥٩٦٧
الترقيم الدولي :٢-٥٤-٦٦٦٨-٩٧٧-٩٧٨
المدير العام : محمد عيد
المدير التنفيذي : عزة ابراهيم

٠٢٣٩٧٦٩١٧٦/٠١٠٠٦١٤١٦٤٥

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة .

اللّؤلؤ المنثور

لوليا

توطئة

طويتُ حلمي في ذاكرتي ورتّبتُ أفكاري وعزمت وتوكّلت وأقدمت على العمل الصّعب.

مسح الحُفَرِ وازالةُ النّتوءات من عقولٍ متحجّرةٍ وتحفيزُ النّاشئةِ لاستعمال العقل وسيلة تامّة وكاملة لتحقيق الهدف.

أمّا المهمة الأولى فهي مضنية وجدّ متعبة، وأمّا الثّانية فهي الطّريقة المثلى كي نحقّقَ رسالتنا في الحياة. للأولى أنا بكلّ قواي وكامل عتادي هدّامة وللثّانية بكلّ محبتي وشغفي أنا البانية لمدائن ودول.

حضارةٌ لا يمكن أن تكون دون التّخلص من هشيم الأفكار البالية العتيقة العفنة.

وسوف نقيمها بعون الله وهمة الأجيال والإخلاص للبناء قولاً وعملًا.

من الألف سننطلق وبالقلم نتسلّح وبالإبداع نتحلى لا شيء يعيق قدراتنا ولا جاهلًا يبطىء سيرنا.

وليس غرورًا؛ فبعيدًا عن الادّعاء، هي ثقةٌ بالله وإيمانٌ بأنفسنا: نحن الفخر والعزّ والحاضر والازدهار، ونحن الصّالحين الأخيار، نورٌ ونارٌ تنير الدّروب وتحرق الأشرار. كفانا استهزاءً بإنسانيتنا ولنقمِ العزاءَ للفساد والضّلال والجهالة والظّلم.

شدّوا وثاقكم! المستقبل لكم؛ أبناء الخط المستقيم وأصحاب الحق المبين وقادة الأرض المعمِّرة المزروعة المغروسة المعروشة.

فلتكن البداية بتغيير مناهج التّعليم وأساليب التّربية و بعدها تكرّ كلّ الإصلاحات ونصبح نموذجًا حيًّا للبلدان الرّاقية شكلًا ومضمونًا.

ولتسقط مقولة "الأرض للكافرين والنّجاح للفاسدين". اشطبوها من قاموس اللّغة وعوّلوا على اللَّبِنة الطّيبة في قلب وعقل كلّ بنت وولد من أبناء خير أمة. من ابتسامتهم المسروقة ومن طفولتهم المنهوبة تكون الانطلاقة بالتّوازي، مع الحداثة أصالة مرنة وحقيقيّة.

الإهـــــــــــداء

لاقيتُ استحسانًا حِسان وكُرِّمتُ بمقامٍ رفيعٍ، ولا تزال حروفي محابرَ مدادُها بحورٌ، ولا تزال أقلامي من خشب الأرز أرصف السّطور فتنبتُ كلّماتٌ لا تشبهها كلّمات؛ للحبّ، للوطن، للأمّ، للأب، للأخ، لذوي القربى من صلات الدّم والرّوح، للجمال وللحياة...

فيا كلّ الحياة أرفدوني بغزير أفكارٍ حالمةٍ وخياليّةٍ وعديدِ كتبِ موسوعاتٍ روائيّةٍ ما بالقلب استطاعةٌ تغلب كلّ حجارة الأرض وحديدِها وتفتّت القاسي وتصهر الجماد.

الكلّمة الطيبة، والابتسامة الجميلة، والنّفس الأمّارة بالخير كلّها سماتٌ تجعل من قلمي قلبًا ينبض للبناء والغرس، للعلم والازدهار، والرّقيّ والسّمو والانطلاق.

اغزُ يا قلم أوراقي الخريفيّةَ لونها بألوان الطّيف واجعلِ الأصفرَ أقلَها ظهورًا؛ فإنّه لا ينفع مع الإقدام ركائزٌ من وَهَنٍ ولا أعمدة من وهمٍ.

تملك يا قلم أن تجعلَ المستحيلَ هيّنًا والصّعب مقبولًا، وأن تضيءَ اللّيالي الحالكات وأن تحوّل زائراتي الغائكات إلى أميرات.

وما تلك إلّا يميني أخطّ بأناملها اللّؤلؤيّة؛ فحروفُها الماسيّة لا تصدأ ولا تختفي ولا تندثر ولا تحتفي.

هي الرّوعة المنشودة والأمام المُرْتجى والزّمن المُتجدّد والأمكنة السّاحرة.
وحدتي زحامُ كلّماتٍ وهدوءي حفنةُ التزاماتٍ وسكوني غالبًا ما يكون حركات: ترانيمُ ذكرياتٍ ونغماتُ حنينٍ وموسيقى للفرح الحقيقيّ؛ الفعل والفاعل والمفعول.

لي ولكَ وللجميع...

الفصل الأول



هو الصّباح الحامل معه مكائدَ ومصيرًا أغبر وقرارًا أحمقًا ودموعًا غزيرةً وحيرةً كبيرةً. لقد وَعَدَت سكينة زوجَها بالولد الذّكر وهو وعدها بالطّلاق إذا كان المولود أنثى والصّورة تبيّن أنّ الجنينَ أنثى وأجّلت الكارثة ريثما تهتدي إلى حيلة تنتشل عائلتها من الضّياع؛ ثلاث بناتٍ والرّابعة في بطنها وأيام وتأتي... ماذا تفعل وماذا تنتظر؟!!

ويوم الولادة بسحر ساحرٍ جاء المولود ذكرًا؛ ففرحت الأم والبنات والوالد المتعجرف الجبّار الجبان.

وبالمقابل كانت الطّفلة " لؤلؤة" بغرفة ثانيةٍ بين أيدي عائلتها التّي تفاجأت بقدومها، إذ صدّقوا رواية أمينة والطّبيبة والتّي تقول إنّه في لحظات الفحص تبيّن أنّ الوالدةَ حاملٌ وقيد الوضع وهكذا طُلِي الأمر على المحيطين بها وصارت "لؤلؤة" التّي كانت في رحم سكينة مع أمّها أمينة. أمّا سامي، الذّكر المنتظر، فكان مقابل حفنةٍ من المال لأمٍّ عزباء رفضتْه قبل أن يولد.

هو القدر والقضاء! ويدّعي الجهلة أنّهم محرّكوه ويملكون القدرة على فرض إرادتهم والإمعان في إيذاء ايمانهم وإنسانيتهم وعلاقتهم بعاطفتهم وزعزعة استقرارهم النّفسيّ والعقليّ.

لؤلؤة في كنف عائلةٍ ظالمةٍ لو لم تأتي إلى الحياة لطُرِدَتِ المسكينة أمينة وصارت في الشّارع بلا مالٍ أو منزلٍ أو عائلة. فالجدّ اشترط على ولده الإنجاب؛ غير أنّ زوجته وصلتْ إلى سن اليأس و كانت تكبره بسنوات. ولكن تشاء الأقدار أن تحصل المعجزة، بنظرهم، حيث إنّ النّاس يتأقلمون مع رغباتهم ويصدقون ما تنسجه آمالهم. وهكذا تحوّلت غير المرغوب بها في مكانٍ ما إلى المخلّص الذّي سينتشل المرأة المسكينة أمينة من الضّياع.

ورحلت سكينة مع سامي إلى قريتها...

وانقطعت الاتصالات بينها وبين أمينة.

وتراكمت الأحداث وصدّقت الأم البديلة أنّها حقيقيّة وعاشت الحدث وأضحت علاقتها بهذه الطّفلة الغريبة علاقة رائعة بين الأمّ وبين ابنتها. فقدّمت كلّ الاهتمام والرّعاية والحبّ للطّفلة الجميلة والبريئة.

في مدرسةٍ أجنبيّةٍ وفي منزلٍ فخمٍ ومع خدمٍ وسائقٍ وحارسٍ، عاشت لؤلؤة حياةً ثريةً؛ ثمنُها كذبةٌ كبيرةٌ وأخذُ مولودةٍ من على طاولة الولادة إلى غرفة أمينة.

- صباح الخير يا أمي.
- صباحك جميل مثلك.
- أعطني قبلة الصّباح.
- أمّي هل نسيت؟ اليوم أكمل العشر سنوات، هل ستكون لي حفلة كبيرة؟
- نعم يا حبيبتي، تستحقين وأكثر، مجتهدة وشاطرة.
- وما هي هديتي؟
- مفاجأة، غدًا تعرفين.
- لا، أرجوك ماهي؟!
- لا تصرّي، غدًا غدًا. حضّري نفسك سننزل إلى السّوق لنبتاع أغراض الحفل.
- ومن ندعو؟
- عندما نرجع نكتب الأسماء، وتتصلين بمن تحبين: زميلاتك وزملائك، معلماتك وجيراننا.
- أمّي، لمإذا ليس لدي أخوة؟! ألا ليته لديّ، لكنت أسعد بنت!
- أوَ لست سعيدة الآن؟!
- بلى، يا أمّي ولكنّي وحيدة.
- لابأس، اعتبريني أختك.
- ههههه! ولكن أنا أريد أخًا.
- لا أستطيع أن أكون أخاك...

ضحكتا معًا وخرجتا إلى السّوق.

وبالمقابل كان هناك صبيٌّ ذكرٌ، الكلّ مجند لإرضائه ولتأمين حاجياته وللسّهر على راحته إلا سكينة، الأمّ الثّانية المسكينة، كانت تعيش لحظاتها

بشعور يشبه حكم المؤبّد وتؤنّب ذاتها وتعيش في داخلها صراعًا مقيتًا: فابنتها التّي يجب أن تكبر في أحضان عائلتها صارت مع أمّ ثانية وعائلة أخرى ولا تعلم عنها شيئًا.

والطّفل الذّي من المفروض أنّه ابنها، هي الوحيدة التّي لم تهتم به بل وتعامله بجفافٍ وتعاقبه على ذنبٍ عظيمٍ اقترفته يداها. في حين أنّها كانت تَقْنِعُ نفسها أنّها مضّطرة وتتساءل كيف أنّ والدة سامي فرّطت به ودارَت الخطأ بخطأٍ أكبر.

ورغم ذلك عاش سامي حاملًا سرًا يجهله ودائمًا ما تساءل لمإذا لا تحبه أمّه بنفس القدر الذّي تحبّ به أخواته. والجواب يأتي دائمًا أنّها مريضة وأنّها لا تستطع تحمّل شقاوته ومشاكساته.

لم يقبل إلّا أن يقيم حفل ذكرى ميلاده العاشر في منزل رفيقه؛ فهناك حديقة وحيوانات وألعاب وبالفعل أوصله والده صباح هذا النّهار إلى ضواحي المدينة ليحتفل بنفسه مع رفاقه نزولًا عند رغبته.

- السّلام عليكم يا ولدي هل تريد شيئًا؟ سأعود مساءً لأقلك إلى المنزل ونكمل احتفالنا هناك.
- حاضر يا أبي، نلتقي مساءً.

وكان اللّقاء مرسومًا بدقة: لؤلؤة مع أمّها تستلم هديتها "شهرذاد"، فرسٌ بيضاء جميلة، وسامي مع رفيقه في الإسطبل ليأخذا الأحصنة مع السّايس ليمارسا الفروسية. يا لهذا القدر! لا يُسقِط من حروفه الأسماء ولا الكلّمات. التقيا، ففرح الولدان بالصّبية الحسناء وبقيت معهما طيلة النّهار بعد أن استأذنا والدتها، وباصرارٍ من صاحب الاسطبل ووعِدٍ من السّايس بالاهتمام بالأولاد جميعهم.

كان نهارًا موسعًا؛ لم يختصر مصير طفليْن ولا إرادة رجلٍ وثلاثِ نسوةٍ، فقد كان شاملًا ملائمًا زاد من أواصر القربى المزيّفة وأحلّ في قلوب الصّغارِ دهشةً واستغرابًا للألفة وللودّ وللمحبة وللقبول حتّى ولكأنّهم يعلمون بما حاكت

لهم عقولٌ جهنميّة وكيف قررت عنهم مصيرهم وهندست لهم أمكنتهم وأزمنتهم، وكيف غيّرت حياتهم.

تواعد الأطفال على المجيء مرارًا إلى الاسطبل بعد أن ودّعوا بعضهم وفرّقتهم الدّروب كما القدر وعاد كلّ واحدٍ إلى منزله. في وجدانه كلّماتٌ لا يُتقَن قراءتُها؛ شعورٌ غامضٌ، إحساسٌ بسرٍ لغتُه صعبة الفهم، وخفاياه عميقة المدى! عسى الأيام تحلّ رموزَه ويعرف الاثنان ما لا يجب أن يعرفاه ولو بالمشاعر حتّى لا تتشوّه الإنسانيّة ولا تتأزّم الحياة ولا يصبحان مشكلّةً عصيبةً يَصْعُبُ حلَّها.

الفصل الثّاني



لن تص

الرّضي

عظيمةٍ ومبرراتٍ هزيلةٍ. فما حياتها إلّا كذبةٌ مدبّرةٌ اعتقدت سكينة وأمينة أنّهما بفعلتهما نجتا من مصيرٍ أسودَ محتومٍ؛ ولن أزيد.

بعد العزاء، حملت لؤلؤة إرثها الشّرعيّ، مذكرات والدتها، وشرعت بقراءتها، إضافةً إلى إرث غير شرعيّ سوف تسخّره لندواتها ولمساعدة كلّ من هو بحاجة من النّساء والرّجال والولدان. ولكن بالمقدمة ستكون المساعدات للنّسوة اللّواتي لا يجدْن حيلةً وانتكست حياتهن بأفعالٍ ذكوريّة وجهلٍ متفشٍ وانعدامِ الثّقة بالذّات.

وسأترك للغالية أمّي التّي ربّتني القلم لتقصّ عليّ حكاية لؤلؤة التّي أبت إلّا أن ترجوَ حياةً كريمةً وأن تمحوَ عن كثيراتٍ نقمتها وتركّز على تصحيح مسارات البوصلة ولو بقليل من تقبّل وعظيمِ جهدٍ.

مذكرات أمّ بديلة

هكذا عنونت أمينة دفتر مذكراتها وهذا ما سعر نيرانُ حماسةِ لؤلؤة على تبيان أنّ الأمّ هي التّي تربّي وليست التّي تنجب فقط؛ فكلّاهما في العطاء سواسية.

عندما تقرأين يا صغيرتي الكبيرة كلّماتي لن أكون معك كي أصرخَ وأدافعَ ولكن أمنيتي الوحيدة ألّا تتخذي أيّ موقفٍ أو قرارٍ قبل التّمعن بقراءة تلك المذكّرات ولن أطلب من الله سوى أن تكوني، يا حبيبتي، محامي دفاعٍ عن صغائر ارتكبتها كي أرضي غروري وأن تكوني في ذات الوقت القاضي ولكن إيّاك أن تكوني الجلاد! هو القدر يا صغيرتي مكتوب وما نحن إلّا الكلّمات.

صغيرتي الغالية لم أخطَّ مذكراتي فإنّما هي إضاءاتٌ كي تبيّن لك بعض ما خُفِيَ وأنا على ثقةٍ تامّة أنّك بعقلك المتوقّد وفطنتك الذّكية كنت تشعرين وتعرفين ولم يغمَّ عليك إلّا القليلُ وهذا ما سأحاول تبيانه يا لؤلؤة حياتي.

كبرتُ في منزل والدي وتزوّجت شقيقاتي وبقيتُ متردّدةً في اتخاذ قرار الارتباط إلى أن التقيتُه. وجدتُ فيه الأمان وكنت أكبُرُه بعشر سنواتٍ ولكن هو

ليس من الرّجال الذّين تُعْجَبُ بهم النّساء لأنّه المدلّل الغنيّ ابن الاسرة التّقليديّة التّي تسير وفق منهاجٍ صارمٍ وبحسب رغبة الجدّ الكبير.

وعشت معهم عمري الذّي كنت أحسبه جميلًا؛ إلى أن فُرِضَ علينا أن نأتيَ بالوريث، ولا فرق عندهم إن كان ذكرًا أو أنثى. المهم أن يأتي الحفيد،ولم يكترث أحدٌ إن كنتُ قد قاربتُ سن اليأس، أو إن كان زوجي رجلًا عقيم، استغفرك ربي، فالمهم عندهم هو النّتيجة وألّا ينقطع إرث العائلة ويختفي اسمها من الوجود. فقد كان جدّه رجلًا شديدًا، ذا جبروتٍ عظيم، يفرض رأيه ورغباته على أهله وناسه ويجب أن يحقّقوا له إرادته ولو كان الأمرُ مستحيلًا.

وعندما التقيْتُ سكينةَ المسكينةَ، رأيتُ في طرحِها الفَرَجَ ولم أكن أتوقّعُ أنّ الظّلمَ سوف يجعلها تشتري صبيًّا لترضيَ هي الأخرى زوجَها القاسيَ الرّاغبَ بالذّكر.اتفقنا على أن تعطيَنا يومَ الولادةِ مولودتَها ويكون الفراق أبديًّا حتى نتجنّب المشاكلّ وتعيشي بطمأنينةٍ. و رغم أنّ الحياةَ كانت ملكَ يمينِك لّا أنك كنتِ تعيشينها بقلقٍ، فكأنّ كلّ ما حولك يوحي بأنّ هناك سرًا ما في حياتك و استفسارًا عن السّبب وراء كونك الحفيدةَ الوحيدةَ لعائلةٍ ثريةٍ كبيرةٍ.
وهكذا كنتِ يا حبيبتي، النّور الذّي أنارَ عتمةَ أيامّي وأزاحَ الغُمّةَ عن قلبي ومَلَأتْ كياني وبالرّغم من محاولاتي زرعَ بعضًا من حسناتي في نفسِك البريئة الطّاهرة إلّا أنّك كنتِ مميّزةً بما طُبِعْتِ عليه من أشياءَ ليستْ بأيدينا، هي مجبولة في دمِّكِ وفي أعماقِ وجدانِك تتوارثينها عن أمّكِ وأبيكِ الحقيقيّيْن.

يا لؤلؤتي، لا تحزني ولا تضعفي. أحسبكِ الفتاةَ الرّشيدةَ القويةَ التّي ستعمل بمجهوداتها الجبّارةِ على إنصافي وإنصافِ سكينةَ المسكينةَ وأشباهَنا وبكلّ ما أوتيتِ من علمٍ وقوةٍ وشخصيّةٍ وسَعَةٍ. أمّا أنا فإفاضتي عن نفسي لا تُنْصِفُكِ ولكن سوف أشعر حيث ما أكون بالارتياحِ لمشاركتي معك همومي وشجوني.

عندما جئنا إلى البيت، أُقيمَتْ لنا الاحتفالاتُ والموائدُ وجاء النّاسُ من كلّ حَدْبٍ وصَوْبٍ ليشاركونا فرحتَنا بك. وبعد ذلك بدأت مسيرةٌ صعبةٌ؛ صارت التّدخلات للاهتمامِ بك كثيرةً وكبيرةً والكلّ يدلو دلوَه ويصرُّ على رأيه وأنا الأمّ البديلةُ الضّائعةُ بينهم. بقي الأمر على هذه الحال الجنونيّة إلى أن طلبتُ من زوجي أن يقفَ ولو لمرةٍ واحدةٍ ويتجرّأُ فيواجهُ ويطلبُ منهم إخلاء الدّربَ لي وله كي نتدبّرَ أمرَنا ونربّيكِ على طريقتنا وتكبرينَ في منزلِكِ بعيدًا عن فرحة ومرحة والدّاية والجارة والعمّة والخالة. وفعلًا استطاعَ أن يُخْرِجَنا من المنزلِ الكبيرِ المليء بالضّجيج والخالي من الحنانِ والعطفِ.

وعشنا سويًّا معًا ولم يُطِلْ أبوكِ رفقتَنا؛ لقد رَحَلَ باكرًا وهو مطمئنٌ على الإرثِ وعلى رضى الجدّ الكبير. حاولتُ بكلّ ثقافتي وعلمي ومحبتي أن أحتويَكِ وأن أجعلَكِ مميّزةً بين أترابِكِ وكنتُ معك خطوةً خطوةً: في مشيتِكِ الأولى، وفي كلّمتِكِ الأولى، وفي يومِكِ الأول في المدرسة، في ترفّعِكِ في المراحل التّعليميّة، وحتّى في النّشاطات التّرفيهيّة، كنتُ أستعيدُ طفولتي وفرحتي المسروقة برفقتِكِ يا أجمل ما حصلَ يومًا في عمري!
لا تستغربي فرابط التّربية ورابط الحبّ أشد من أواصرِ قرابةِ الدّمّ ولو أنّ الأخيرة هي الغالبة.
كلّ ما في نفسي من نقمةٍ على المجتمع وأعرافِه شرحتُه لك؛ فالمجتمعُ ذاتُه الذّي حَجَبَ المرأةَ هو اليوم يعرضُها كسلعةٍ جامدةٍ خاضعةٍ للتّجارة، وهو ذاته الذّي جعل من الرجل المستبد ومنها المتحررة حتى من العقل والقلب.
لا أعرفُ ماذا أقول ولكن يجب أن نصلَ إلى مجتمعٍ واعٍ وعلى يقينٍ أنّ المعضلةَ ليست بظلمِ المرأةِ ولا بانحلالها ولا بالمناداةِ بمساواتِها مع الرّجلِ، وهذا مستحيلٌ! فهي لها من الميزاتِ ما لا يمكن أن تكون للرّجل والعكس صحيح.
فيا صغيرتي، يا لؤلؤتي الغالية الثّمينة، معك ومع دراستك العليا سوف توضحين لمن يملكون الرّغبة بالتّغيير إلى الأفضل وإعادة الأمور إلى نصابها و إزالة الغشاوة عن العيون. المرأة مكرّمةٌ بذاتها والرّجل هو من يكمّلها

ويعزّزها وهي لا ولن تكون أَمَةً إلّا لخالقها. وهو لا ولن يكون سّيدًا إلّا على نفسه ورجلًا على رأس عائلته. المنظومة كلّها في خطر إذا لم نضعِ الحجرَ الأساس لإصلاح المجتمع ولمحو السّلبيات واستبدالها بإيجابيات، ستغمّ علينا لا محالة.

لؤلؤتي، حياتي عند والدي لم تكن سهلة؛ فعندما تكبر البنت في منزل والدها الجميع يهزأ بها كأنّها مجرمةٌ وهاربةٌ من قوانينهم. حتّى الأقربون أنفسهم يمعنون الأذى بي فأنا قد قاربت على العنوسة وهربت مني حياتي، هكذا صنّفوني و ذنبي الوحيد هو أنّي كنت أهرب نحو العلم والقراءة، فيا لإجرامي!

بقيتُ أرتشف الكنوز المعرفيّة وأرتحل في بحار الكتب حتّى حملْتُ في جوفي مكتبةً نفيسةً وموسوعات ثمينةً. غلطتي الوحيدة الرّائعة هي أنّني قبلتُ المساومةَ مع أمّك سكينة كي نحلَ عقدةَ حياتِنا: أنا المرأة التّي فُرِضَ عليها أن تَلِدَ وهي في سن اليأس. وهي المرأة التّي فُرِضَ عليها أن تضع مولودًا ذكرًا يكون أخًا لبناتٍ أربع. حبيبتي لا تبتئسي هو قضاء رب العالمين ولو اعتقدنا جميعنا أنّنا حقّقنا رغباتِنا.

وعندما انتقلت إلى بيت عمّي كانت المصيبة! فالّنفس يجب أن يكون محسوبًا وبقدرٍ، والخطوات والانفعالات يجب أن تُدْرَس؛ ولكأنّني واللهِ في سجنٍ طوعيٍّ إلى أن جِئْتِ؛ فبدلتِ أيامي، وغيرتِ حياتي، وأزحتِ سواد نهاراتي أضئت لياليّ المظلمة.

إذا ما جاهرت برأيي وقلتُ الصّواب يحاربونني ويعيّرونني بأنّي البنت الكبيرة التّي ضَحِكَتْ على ابنهم وأجبرَتْهُ على الاقتران بها. والحقيقةُ، يا جميلتي، هو الذّي أصرّ وألحّ: فتربيتي لم تكن تسمح لي بالتّمادي مع أحد ولكنّ جمالي وشخصيتي جذباه وجعلاه يصرّ على الارتباط بي وأنا لم أملك إلّا الموافقة فما كنت أعيشه لا أُحْسَدُ عليه. انتقلتُ من عذابٍ إلى آخر، ومن قهرٍ إلى أكبر حتّى استقريْتُ معكِ ورَحَلَ عنا الجميعُ...

حينها بدأتُ أشعر بوجودي، بأهميةِ حياتي وبأشياءَ كانَتْ في داخلي لم أجرؤ يومًا على إظهارها، ولكن القوة التّي استمديْتُها منك يا مرآتي ويا طيفي ويا

امتدادي جعلتني أكثر قدرةً على المواجهة والإصرار؛ فأنت ابنتي وحدي لست ابنتهم ولن تكوني! أنت ابنةُ الحزنِ الذّي صار فرحًا وابنةُ الجهلِ الذّي بات يقينًا. أنت الشّعاعات التّي ستنيرُ دروبًا مظلمةً لكلّ أنثًى بحالاتِها المختلفة.
لا تبخلي يا أميرتي ويا لؤلؤتي بما منّ اللهُ عليك من نباهةٍ ونعمةٍ. أتحفيهم جميعًا بمكنوناتِ نفسِكِ تستطيعين أن تبدّدي سوادَ العقولِ وتزيحي الأثقالَ عن القلوبِ بالكلّمةِ وبالعملِ وبالجرأةِ، ستنجحين حيث لن يتمكنَ الآخرون.اختصاصُك وأطروحتُكِ يجب أن يكونا مثلك "لؤلؤة"، وأكاد أسمعك تهمسين:" حتّى بعد موتك تنصحين!" لا يا صغيرتي هي ليست نصيحة هي حلمٌ كبيرٌ مرَّ عيه الزّمن ولم يتحقّق وآن الأوان كي نبدأَ باطلاق صرخاتِ الوعي كي يستفيقَ الغافِلُ والنّائمُ والرّاضي بالغَوْصِ بآسنة الأعراف، تلك التّي لم تترك لنا حيلةً ولا وسيلةً، وجرّدتنا من قوانا وأحبطت عزائمنا وقدراتنا.

عتبي على نفسي أنّي لم أُنْهِ معك نجاحَك وتقديرَكِ ولكن كُوني أنا وأنتِ وجميعِ نساءِ الأرض وكُوني يا صغيرتي المحبةَ الرّائعةَ للإنسانِ بشكلّ عامٍ؛ فبدعة التّفريق لا تمتُ بصلةٍ لا للأديانِ ولا للإنسانيّةِ ولا لأيةِ رسالةٍ سماويّةٍ. فليس معنى أنّ المرأة ضعيفةُ البنية أن تكون بلا عقل، وليس معنى أن يكون الرّجل صَلِبَ البنية حتّى يمارسَ قُوَتَه ويعنّفَ من يجبّ أن يكون المخلوقَ الرّقيقَ الذّي يعشقُ.
أنا واثقةٌ بك وبقدرتِكِ على تفجيرِ قنبلةٍ في وجوهِ الجميعِ؛ فكرة أنّ القمعَ والانحلالَ لا يمتّان بصلةٍ لا للرّجالِ ولا للنّساءِ وكلّاهما له مميّزات يجب ألّا تكون نقاطَ ضعفٍ أو نقاطَ قوةٍ، يجب أن تكونَ الخطوةَ التّي تتبعها خطواتٌ لإعلاءِ كلّمةً نفسّرُها بلفظِها وبحقيقتِها وليس حسب مزاجيتِنا وشيطنةِ إرادتنا.

ليس الرّجل كالمرأة، نعم. ليس الرّجل كالمرأة ولكن ذاك الأمر لا يعطيهِ تصريحًا بتعنيفِها ولا يعطيها تصريحًا بالخنوع! لا يوجد في القرآن سورة الرّجال ولكن يوجد سورة النّساء والتّي يا حبيبتي استقيْتُ منها الكلّماتِ لمواجهةٍ لا بد منها في شرحِ أطروحتَكِ.



الفصل الثّالث

على جدايل الشّمس، تكتب لؤلؤة مسيرتَها وبأبجديةٍ ذهبيٍّة صفراءَ وكلّماتٍ من رحيقِ صَدَفِ البحارِ ومن كنوزِ عَقْلٍ صقلتْهُ الحياة.



ولن يأتيَ الربيعُ إليّ، يا والدةً لم تضعني و لكن ربّتْني وحمَّلَتْني رسالةً عظيمةً عنوانها: المرأة التّي تجمّل الحياةَ وتحلّي مرارةَ الآهِ والألمِ وتمحو الأحزانَ وتَهْدُمُ كلّ بناءٍ متصدّعٍ وتحرق كلّ رداءٍ ممزّقٍ وبال مشوّش... المرأةُ التّي ليس في قاموسِها المطالبةُ بتحريرها وهي المصونةُ الحرّةُ، التّقيّة الأبيّة والمرأة التّي تؤمن أنّه بمناداتها بالمساواة مع الرجل تبخس حقّها وهي المتفوّقة

عليه وفي كلّ مجال. والتّي في يقين وجدانِها تعرف أنّها رفيقةُ آدم ومعه تكتملُ مسيرةَ الحياةِ؛ فكفى متاجرةٌ بها وبكيانها وحذفُ كراماتِها وإقلاقُ راحتِها. هي التّي حباها الله بميزة لو تمعّنا بها لسكتتِ الصّحفُ ولجفّتِ المحابرُ وكُسِرَتِ الأقلامُ؛ ألا وهي قوله تعالى (وقرّي عينًا)[1]فهل تدركون معناها؟! أي نامي قريرةَ العينِ مطمئنةً واثقةً بأنّ كلّ شيء، مهما بلغتْ صعوبتُه هو صغيرٌ وحَلُه قريبٌ؛ فلا تبتئسي يا امرأةً. فالحزنُ لا يليقُ بالنّساءِ، هن للجمالِ وللأنوثةِ، وللاطمئنان وللإنتاجِ. نعم! فهي الولود الودود، الولود لا داعي لمناقشتها أو حتّى محاولة تفسيرها. في حين أنّ الودود فسنقفُ عندها كثيرًا: الودود، من الودّ. وهي باللّغة المبادرة بإظهار الإيجاب بالتّقرّب عن تفاهمٍ وحبٍّ وألفةٍ. وبالمضمون هي أوسع من تفسيرها؛ فهي الفعل السّاميّ والذّي تترتّبُ عليه إيحاءاتٌ إيجابيّةٌ تجلي العلاقةَ وتجعلها متبادلةً بالابتسامِ وبالكلّمةِ الطّيبةِ وبالنّظراتِ الثّرثارةِ والحضور السّامق.

لا يمكن أن تتكوّن علاقةٌ إلّا بالودّ ولا تستمر الحياة بدونه. وهو مرتبطٌ بالمرأةِ تحديدًا وفيها وحدها مقوّماته ومعها صفاتُه وتملك القدرةَ على اكتمالِه في النّاس فيما بينهم.

هي المبادرة، نعم! وبلا وَجَلٍ ولا خَجَلٍ وكلّاهما من إرثِ مجتمعِنا اللّاجيّد. ليس عيبًا أن تبتسمَ في وجهِ الأخلّاءِ ولا يُنْتَقَصُ من شرفِها شيئًا إذا ما قدّمت الكلّامَ الجميلَ واستبدلَتِ العبوسَ والوجوهَ القاسيةَ بوجوهٍ رضيةٍ تعكسُ طيبتَها ورغبتَها في الحبّ وفي الودّ.

واو العطفِ مع دالِ البشائرِ تصنعُ المعجزاتِ قي زمنٍ خلا من كلّ الرّوحانيّاتِ وتحجّرت فيه حتّى الأفئدة. لا يلزمُنا جسدُ امرأةٍ غاويةٍ ولا صوتَ مغنيةٍ ولا إغراءَ فاتنةٍ جاهلةٍ؛ ولكنّنا نعوزُ، لنعاودَ رشدَ أمتنا، إلى لغتنا العربيّة وإلى معرفةِ معاني كلّماتِها. الودُّ يا سادة، علاجٌ للأمراضِ النّفسيّة هو يدوّر الزّوايا المسننّة ويمهّد الأفكار الصّلدة ويزيلُ العواطفَ الصّديدةَ. هو ملصقٌ بالمرأة وهو نصيحةٌ لكلّ من أرادَ إقامةَ علاقةٍ والزّواجَ والارتباطَ. ابحثوا عن

---

[1] مريم، آية ٢٦.

الودود ولا تركّزوا على الشّعر المستعار أو الموصول ولا على طلاء الوجه والأظافر فكلّ هذا يزول بمسحةِ قطنٍ مبلّلةٍ ونظرةِ ندمٍ لا يمكن أن تعيد الزّمنَ إلى الوراءِ ولو لثانيةٍ.

برحيلِكِ والدتي خسرْتُ حضورَكِ ولكنّكِ ما زلتِ معي: في المحاضراتِ وفي المحافلِ العلميّةِ وفي المؤتمراتِ. وها أنا اليومَ أتهيّأُ لاستلامِ جائزةٍ دُوَلِيَّةٍ عن حقوقِ الإنسانِ عن دراستي الشّاملةِ حول المرأةِ والرّجلِ والإرهابِ ثالثهما...

كم تمنيْتُ لو كنتُ معكِ ساعةَ رفعتْكِ الأكفُّ وأخذوكِ بعيدًا عني. رفعْتُ يدّي المنهكةَ أنتظرُ ردّكِ وأتمنى لو رَفَعْتِ لي يدّكِ كي أشعرَ بكِ، ولكنّها الحقيقةُ الصّعبةُ: توفتْ مَنْ أنْجَبَتْني فكرًا وثقافةً وتربيةً. رَحَلَتْ مَنْ دَفَعَتْ ثمنَ خطأِ مجتمعٍ ظالمٍ يدّعي أنّه مثاليٌّ وأنّه مُتَدَيِّنٌ وأنّ ما يقومُ به هو من الشّرعِ. ولكنها تقاليدٌ يلزمُها الحرقُ وعاداتٌ من الضّروريّ أن تختفيَ؛ فلا دينًا يأمرُ بأن تُرمَى غيرُ الولودِ في الشّارعِ لمصيرٍ أسودَ ولا آيةً تقولُ بأنّ مَنْ تَلِدُ أنثًى تُعامَلُ معاملةَ الزّانيةِ، والعياذ بالله، تبًّا لهم، لقد غيّروا المفاهيمَ ولعبوا بالقوانينِ وضربوا بالجدارِ الشّرائعِ كلّها.

يقولُ ربُّ العالمين في كتابِه الكريم أيها الجهلةُ، من النّاسِ مَن يتزوّجُ ومنهم مَنْ يتبتّلُ ومنهم مَنْ يُخَلّفُ ومنهم مَنْ هو عقيمٌ ومنهم من تكونُ ذريتُه إناثًا ومنهم ذكرانًا؛ فعلامَ تعترضون على حكمِ ربّ العالمين.

حبيبتي، يا من وَلَدَتْني من رحمِ معاناتِها ومن عمقِ وجدانِها. لا ذنبَ لكِ وعندما حَزِنْتُ وبَكَيْتُ ليس منكِ ولكن عليكِ وعلى سكينةَ المسكينةِ: أمّي التّي لم أتعرّفْ عليها ولن أراها ولا أريد. رغم علمي أنّها ليستْ مذنبة فكلّ النّقمة على العقولِ المتحجّرةِ المتواريةِ خلف بضعِ كلّماتٍ من آيّ القرآنِ وأحاديث الرّسولِ عليه الصّلاة والسّلام. كأنّي بكِ أمامي تُسْهِبينَ وتَشْرَحينَ عن أمر الرّسول للمسلمِ بأن يتزوجَ الولودَ الودودَ وأن يحظى بذاتِ الدّينِ، تلك الوصيةُ التّي يبدو أنّها سَقَطَتْ من مفهومهم

لقد جعلتْني يا عزيزتي متمردةً على كلّ المجتمع الذّي لغايةِ اللّحظةِ يُمْعِنُ في إيذاءِ المرأةِ ويهينُها تارةً ويَسْجُنُها كأنّها محكومةٌ تقضي حياتَها وتنفّذُ عقوبتَها كحكمِ مؤبّدٍ وتاراتٍ أُخَر يخرجونها من آدميتِها لتخلعَ سِتْرَها وتنكشفَ وتتحوّلَ

إلى سلعةٍ دعائيّةٍ ومادةٍ إعلانيّة. أين تلك التّي تهزُّ السّريرَ بيمينِها وتهزُّ العالمَ بيسارِها؟ أين الأمّ المدرسةُ التي إذا أعدّدتها أعدّدتَ شعبًا طيبَ الأعراقِ؟! نكاد نكون كلّنا لقطاءَ وأولادَ... لا أحبّ أن أكتبَها ولكنّها الحقيقةُ.

عندما قدّمنا رضا النّاس على رضا ربّ العالمين سقطنا في المنحدرات وغرقنا في الآفاتِ وغَرِقْنا بالخطايا. لا زال صوتُك يُشْجيني ويُريحُني ويحفزّني، عندما كنت تقرأينَ لي بصوتِكِ الحنونِ تمهيدَ دراسةِ الماجستيرِ فحفظتُها من رخامةِ صوتِكِ: "اعتمادُ طرائقَ لتسهيلِ مهماتِ الإنسانِ فيها من المبالغةِ إلى درجةٍ وصولِنا إلى حالةِ الخمولِ والكسلِ والرّتابةِ".

ولا زالت المذكّرات من فرائضي اليوميّةِ وما زلت أتصفحُّها وأتفكّرُ بكلماتِكِ التّي مهما وصفتُها لا أفيها نبلَها ومكانَتَها، قد أستطيعُ أن أنشرَها يوميًّا على وسائلِ التّواصلِ ليس للفضيحةِ ولا لهتكِ الأسرارِ ولا لانتهاكِ الحرماتِ وإنّما لمشاركةِ كلّ ذي قلبٍ وفكرٍ معاناةَ المرأةِ في مجتمعِنا العربيّ. ليس كما يحاولون إظهارَ المشكلّةِ من خلالِ الدّعواتِ إلى التّحريرِ والمساواةِ والتّي كلّها تَصُبُّ بمكانٍ معادٍ للأنوثةِ وللمرأةِ...

حقُّكِ عليّ يا غاليتي، أن أكتبَ مذكراتِكِ يوميّاتٍ على صفحاتي وأتناقشَ بها مع أصدقائي علّني أفيك قدرَ الإمكانِ جزءًا بسيطًا من الرّاحة التّي كُنْتِ تنشدينَ وقليلًا من البرّ الذّي به لكِ أدينُ.

تتوالى الصّدماتُ وتتساقطُ فوقَ رأسي المشاكلُ ولو حاولتُ استيعابَ الأمورِ، تبقى مشاركةُ النّاسِ معكِ وتَدَخُلُهُم في أبسطِ خصوصياتِكِ من أعظمِ ما عانيتُه.

عيونُ الكثيرين تلمعُ، أُجَالِسُهم ولو على مَضَضٍ ولإرضاءِ الاجتماعيّاتِ والتّقاليدِ والواجباتِ العائليّةِ: هل ارتبطْتِ بالجامعةِ؟ وماذا ستجنينَ من الشّهاداتِ؟ يلزمُكِ ولدٌ يحملُكِ في آخرتك... حتّى وصلْتُ لقناعةٍ مفادُها أنّ مصاحبةَ الجمادِ خيرٌ من مجالسةِ الألسنةِ.

وهكذا عِشْتُ أحلامي وركّزتُ على أعمالي ونَجَحْتُ في حياتي؛ باستثناءِ لقاءَ الشّريكِ أوكما يقولون نصفيَ الثّاني. هو القدرُ ولكنّهم لا يتقبّلونَه. إلى أن صادفْتُ رجلًا من الطّبقة المخمليّةِ الآيلةِ للسّقوط في كلّ ثانيةِ مراتِ عديدة ولم يبقَ منها إلّا الصّالوناتُ المعتّمةُ والعقولُ المتحجّرةُ.

وهكذا انتقلْتُ من سجنٍ إلى آخر أشدِّ عذابًا وأكثرِ ظلمةً، حتّى اهتديْتُ إلى فطنةِ التّبنّي والاحتيالِ على عائلتي وزوجي وكلّ من حولي واعتقدت أنّي وصلْتُ إلى مبتغاي ومبتغاهم وارتضيْتُ لذاتي العبورَ على عاطفةِ أمّ ثَكَلَتْ ابنتَها وهي حيّةٌ تُرْزَقُ فقط لإشباعِ غرورِ رجلٍ ظنّ نفسَهُ إلهًا وقرّر أنّ على امرأتِه أن تَلِدَ وَلَدًا..."

هي تبّنَتْ الولدَ من أمٍّ عزباءَ وأنا سرقْتُ فرحةَ أمٍّ مغلوبٍ على قرارِها...

فكنتُ معكِ مثالًا للأمّ والابنةِ في كلّ الأشياءِ ولكن كلّ يومٍ كانت تُنَغّصُ عليّ عاطفَتي ويوجعُني كذلك ضميري لأنّني لم أستطعِ المجاهرةَ والصّراخَ في وجهِ مجتمعٍ يزوّرُ ويزيّفُ ويسيرُ وراءَ الكَذِبِ ويُصَدّقُ أنّه مجتمعٌ إنسانيٌّ...

لستُ معترضةً على وجودِك وإلّا لما أَقْدَمْتُ على تربيتِكِ وبقوةٍ وباحتضانٍ وبكلّ الحبِّ ولكن اعتراضي على اتجاهِ عقولٍ لجهةٍ لا أجدُ لها تسميةً سوى الجهل. وهذه هي كلّماتي الحقيقيّة وكما علّمتنا إياكِ وأنا الحياةُ: فالصّدقُ أقوى وإن كان مريرًا.

حكايتُنا لم تنتهي وستبقَيْنَ الابنةَ الجميلةَ واللّؤلؤةَ المكنونةَ والتّي سوفَ تشعُّ على اللآلىء المنثورةِ علمًا وثقافةً ومحبةً. لذلك ستتفاجئين عندما تقرأين قصصًا لنساءٍ كثيراتٍ عانَيْنَ وكنَّ مثالًا للمرأةِ القويةِ. دون دروبٍ ناريّةٍ ولا وسائلَ تبرّرُ الغاياتِ، بجهدٍ وصبرٍ وصمودٍ وتشغيلِ القلوبِ واليديْنِ قُمْنَ ببناءِ عائلاتِهن وبلا حائطٍ ولا من يحزنون ولا رجلٍ ولا ذكرٍ....

ومع الأسف...

كي يعلمَ الجميعُ أنّ الانتقالَ من الضّعفِ إلى القوةِ وتحويل السّلبيّةِ إلى إيجابيةٍ محصورٌ فقط بالمرأةِ؛ فهي وحدُها من يستطيعُ أن يهزَّ العالمَ ومن دون يديْن أيضًا...

من سارة إلى مريم، نزهاتٌ في ترهاتِ ومتاهاتِ الدّنيا حكاياتٌ لا تُشْبِهُ سِيَرًا ولا قصصًا متفرّدةً بواقعيتِها وجميلةً بمغزاها.

الاغتصاب كان و مازال مستمرًا. ورأينا الكمّ الهائلَ من المغلوباتِ والمُغْتَصِباتِ إلّا أنّ حلّ المعضلة والبحث عن إنهاء الأمر يرجعُ إلى المرأةِ نفسِها...

يعني الزّوجة الأمّ تتحمّلُ كاملَ المسؤوليةَ ليس بدلًا من الجاني ولكن لتقصيرِها في تأهيلِ وتعزيزِ شخصيةِ ابنتِها وكمّ فمِها وإفهامِها أنّ الكبارَ يحقُّ لهم كلّ شيءٍ، في حين أنّها ممنوعةٌ حتّى عن الدّفاعِ عن نفسها...
سارة كريمةٌ من كريماتِ هذا المجتمعِ ارتبطَتْ برجلٍ من غير دينِها وبمباركةِ أمّها

فحوّلت سارة عائلتُها إلى عائلة تشبه العانسٍ بكليتها بأفعالها وأفراحها واتراحها هي ردة فعل مبطنة أم انتفاضة بوجه مصارحتها مع نفسها...

أنجبَتْ ابنةً وتلك الابنةُ اعتبرَها الرّجلُ الذّكيُّ ملكًا له وراحَ يغتصبُها، إلى أن كَبُرَتِ الطفلةُ المسكينةُ وعَرَفَتْ أنّه كان يقتلُ براءَتَها وما يقومُ بهِ ليسَ دلالًا ولا غنجًا بل قتلٌ عن سابقِ تصوّرٍ وإصرارٍ لعائلةٍ بُنيَتْ على ضديْن لا يلتقيانِ....

وما ذنبُ المسكينةِ التّي هي بمثابةِ حبلٌ يشدّه والدُها الأخرقُ وتشدُّه والدتُها البلهاءُ: واحدٌ لجهةِ الغريزةِ وقِدَحِ الخمرِ وواحدةٌ لجهةِ الجحودِ والانتقامِ...

الصّغيرةُ صارَت صبيةً جميلةً متفوّقةً وعبقريةً فوضعت حدًّا لكلّيهما ونبذَتْهما من حياتِها وأعْلَنَتْ للملأِ أنّها ملحدةٌ ولا يعنيها أن تُنْشِأَ عائلةً وهي تسعى للمساكنةِ مع مَنْ ترتَضيهِ لها صاحبًا وصديقًا.! وكلّ هذا لا يعلمُه المجتمعُ؛ فهي فقط معروفةٌ بإلحادِها وبتخطّيها الخطوطَ الحمراءَ وبأنّها تمارسُ الحريةَ بإفراطٍ وتروّجُ لها من خلال برنامجِها التلفزيونيّ الذّي ينتقدُه الألوفُ ويشاهدُه الملايين...

في حلقةِ التّرويجِ للّواطِ وإظهارِه كحالةٍ شخصيّةٍ ونموذجٍ للحريةِ الفرديةِ ظَهَرَتْ بحلةٍ تُشْبِهُ الشّيطانَ فارتدّتْ نِصْفَ ثوبٍ للذّكورِ ونصفَه الآخر للنّساء ...

وحاولَتْ المسكينةُ أن تكونَ قويةً، فتكلَّمَتْ عن شواهدَ وأمثلةٍ وبمشاركةِ عالميّينَ ومحليّينَ. غير أنّها وقَعَتْ في ضعفٍ مَكينٍ حينَ سَأَلَها مُشاهِدٌ إلى أيِّ من والديكِ تميلينَ؛ فانهارَتْ المسكينةُ وتساقَطَتْ عنها كلُّ الأوراقِ المزيّفةِ وارْتَعَدَتْ من ضعفِها وفَضَحَتْ سريرةَ عائلتِها. فتحدّثتْ عن والدِها الحيوانِ البشريّ الذّي اغتصبَها وعن والدتِها الخانعةِ والتّي لن تدافعَ عنها يومًا ... فإلى أيّ ميلةٍ تريدُني أن أميلَ؟! لجهةِ أيةِ ديانةٍ وأنا الجامعةُ لديانتيْن عظيمتيْن في تكويني الجينيّ وفي ثقافتي العليلة؟!

ولقد كانت جريئةً بحقّ، لدرجةِ أنّها تحوّلت إلى إنسانةٍ أشهرَتْ توبتَها وارتبطَتْ برجلٍ يصونُها وعَرَفَتْ أنّها كانت ضحيةَ تقاليدِ مجتمعٍ باليةٍ وأعرافٍ رثّةٍ لا تُشبِهُ الدّينَ ولا تَمُّتُ للإنسانيّةِ بصلةٍ...
الإعلاميّة القديرةُ لم تستقلْ من عملِها بل تابَعَتْ وازدادَتْ نسبةُ المشاهدينَ لبرنامجِها ولا أعلمُ كيف تَنْقَلِبُ الألوانُ فجأةً بنَكْزَةٍ أو بشِهابٍ أو بقدرةِ العليم. المتمردةُ آمَنَتْ والضّالةُ عادَت إلى أحضانِ الحقيقةِ، امرأةٌ تعلِنُ مرارًا وتكرارًا أنّها مكرّمةٌ وأنّها لؤلؤٌ مكنونٌ وبفضل الأيادي السّوداءِ صارَ منثورًا هنا وهناك وفي أمكنةٍ لا يجبّ أن يكونَ فيها ولا يليقُ بالمجوهراتِ أن تسكنَ فيه.

والدُها في مأوًى ووالدتُها مستمرةٌ في حياتِها: امرأةٌ ارتدَّتْ عن دينِها وتعيشُ مأساتَها مع نفسِها وتحتَ تمثالِ السّيدةِ العذراءِ تبكي وتنتحبُ على حالِها وعلى ما تدّعيهِ حالةُ ابنتِها المتطرّفةُ التّي، بحسبِ اعتقادِها، أضحتْ داعشيّةً لأنّها ارتدَتْ الحجابَ وارتبطَتْ برجلٍ مسلمٍ ملتحٍ.

يضحكُ الزمانُ ويهزأُ بنا القدرُ وفي كلّ مرةٍ بدلَ أن نُصارحَ أنفسَنا نبتعدُ ونهاجمُ الصّدقَ والحقيقةَ ونسيرُ وراءَ ما رسموه لنا راضينَ بالقساوةِ والبشاعةِ والسّوداويّةِ مصيرًا محتمًّا لنا كمثلِ سارة تمامًا..."
يصحُّ القولُ هنا مَنْ يرَ مصائبَ غيرِه تَهُنْ عليه مصيبتُه!.

كنْتُ يا لؤلؤتي أتوارَى عن أنظارِهم جميعًا كي أرتاحَ بين دفتيْ دفتري ومع قلمي: أناقشُ، وأحلّلُ، أراقبُ، وأُعَلِّقُ، وكانَ بودّي فقط أن أُحاورَكِ ولكنّكِ كنتِ صغيرةً جدًّا وقلبُكِ الكبيرِ لا يتسعُ إلّا للمحبةِ. فلن تخدشَ بياضَه قصصٌ من هذا النّوع ولكن أعوّلُ على رجاحةِ فكرِكِ عندما تمرّينَ على تلك القصصِ كي تزيدَكِ قوةً ونباهةً ورجاحةً وإنسانيةً ودعمًا للمرأةِ بشكلٍ صحيحٍ وليس باعتبارِها سلعةً أو مادةً أو معبرًا أو جمادًا؛ بل هي مخلوقٌ رفعَ قدرَه اللهُ وقدّرَهُ فلماذا تُدَنّسوا طهارتَه؟!...

هي وصيةُ رسولِنا الكريمِ ولها الجنةُ كما بشّرَنا عليه الصّلاة والسّلام، وإذا ما قَرَأْنا القرآنَ لاحظْنا أنّه يشدّد على عبارة:" لا تحزني وقرّي عينًا"؛ سبحانَ اللهِ ولكنّ العبادَ لا يوقنون. ابنةُ سارة انتشلتْها قدرةُ اللهِ من الحضيضِ وتابَعَتْ مسيرتَها تكفّرُ عن المفاهيمِ المُرْماةِ لنا من مجتمعاتٍ غريبّةٍ لا تُشْبِهُنا.
كما أنّها لُقِّبَتْ "بالمرأةِ ذاتِ الخمارِ" عندما قَرّرَتْ أن ترتديَ الخمارَ وتكونُ أمًّا صالحةً وتربّي أولادَها تربيةً صالحةً حتى يُواجهوا الفسادَ المستشريّ ويكونوا قادرينَ على تغييرِ المساراتِ الخاطئةِ وتصحيحِ المفاهيمِ السّائدةِ...
اليومَ تناقَلَتْ المحطاتُ ووسائلُ التّواصلِ الاجتماعيّ خبرًا عن التّي خَلَعَتْ حِجابَها على الهواءِ مباشرةً، وتَحَدّثَتْ عائلتَها وشَرَحَتْ كيف أنّها خَرَجَتْ من الشّرنقةِ، ووَجَدَتْ نَفْسَها الضّائعةَ. أَعْلَمُ أنك تبتسمينَ، يا لؤلؤتي لأنّكِ لستِ محجبةً ولكنّ القصةَ ليست في مَنْ هي محجبةٌ ومن لم تَتَحَجّبْ؛ المشكلةُ في كيف أنّهم يسوّقون لمشاعرِنا الدّينيّةِ باستخفافِ اللهِ فرضَ الحجابِ على المؤمناتِ حتّى لا يُؤْذَيْنَ. وكم من الأذى تتعرضُ له بناتُنا اليومَ في المنازلِ وفي الشّوارعِ وفي كلّ مكان يَطَأْنَهُ.

فاطمة يا ليتكِ تبدّلينَ اسمَكِ أيضًا، كما بدّلوا لكِ مظهرَكِ وساعدوكِ على أداءِ مَشْهَدٍ تمثيليّ قبضْتِ ثمنَهُ، أي أنّكِ بِعْتِ قضيةَ الحجابِ بمئتي دولارٍ يا غانية.

نعم! كان مشهدًا تمثيليًّا وباعترافِ صاحبةِ العلاقةِ، كم من ساذجةٍ خَضَعَتْ لقانونِ المالِ واستُغِلَتْ بحاجتِها كي يروّجوا ويسيئوا للإسلامِ وللمسلمين وبأيدينا. فكما أنّك حرّةٌ بالتّعرّي، هي أيضًا حرّةٌ بارتداءِ الحجابِ سواءَ قَبِلْتِ أو رَفَضْتِ. هَزِلَتْ. نعم أنا ارتديتُ الحِجابَ عند موتي فقط وبكفني ولكن لستُ مع كلّ ما يَشْنُّوه علينا ولن أقولَ نادمةً لا أعلمُ الله أرحمُ الرّاحمين.

نصيحةٌ لكلّ امرأةٍ مسلمةٍ، قومي بواجباتِك التّربويّة والإسلاميّة واغْرُسي في عقولِ النّاشئةِ الفضائلَ؛ لقد خَسِرْنا أنفسَنا عندما امتلأتْ نفوسُ أولادِنا برذائلَ الآخرين ومفاسدَهم. نحن مع الحشمةِ، نعم! ولن نكونَ يومًا مع الرّذيلةِ. عيون الذّكورِ عَمَتْها السّيقانُ والصّدورُ فصاروا وحوشًا بشريّةً مُلْتهمةً.

عذرا يا ابنتي كنْتُ قاسيةً ولكنّ الأجواءَ حولنا تدعونا لنجابةِ الحربَ الكبيرةَ بكلّ ما أوتينا من قوةٍ. إذا ما ابتغينا مجتمعًا قويًّا متقبّلًا سدًّا منيعًا في وجهِ الفتنةِ وجبلًا عاليًا أمام الأمواجِ المُرْسَلَةِ لنا لإضعافِنا ولمحوِنا عن وجهِ الأرضِ.

الفصل الرّابع



لقد حملتُه كأنّي أملكُ شهادةَ قوةٍ تجعلُني أقفُ وأَصْرُخُ بأعلى الصّوتِ:" أنا الوليدةُ التّي رميتموها تبغي الرّجوعَ إلى كَنَفِكُم بعد عشرين عامًّا..."

لقد تَرَكْتِ ليَ الخيارَ في البحثِ عن أهلِي أو طيّ صفحةِ الماضي قيدَ الكتمانِ. وصدقًا ليس لنقصٍ في نفسي ولا لحاجةٍ لي في حمايةٍ أو كُنْيةٍ ولكن اتخذْتُ قراري لأجلِ أن أُكْمِلَ مسيرةَ عمري حقيقيّةً وليس عنصرًا مُلْحَقًا بعائلةٍ أكْرَمَتْني ووالدةٍ ربّتْني وعلَّمَتْني ووجّهَتْني للبرَّ ودَرّبَتْني على المحبةِ، مشكورةً رَحِمَكِ الله يا أحبُّ إنسانةٍ على قلبي.

حتّى وإن اجتمعْتُ مع والدتي سأخبِرُها كم أحبُّكِ وكم أنا أفتقدُكِ وماذا تَرَكْتِ لي من ثروةٍ ماديّةٍ وفكريّةٍ وراحةٍ نفسيّةٍ جَعَلَتْني أواجهُ العالمَ وحدي.

طَرَقْتُ بابَ البيتِ، كانَ الجميعُ بانتظارِ النّتيجةِ وعلى وجوهِهم علاماتُ الذّهولِ التّي لا يُمْكِنُ أن تَقْرَأَ ما يعتلجُ في داخلِهم! هل ينتظرونَ ابنتَهما أم يحضّرونَ لواقعةِ رفضِها وطردِها للمرةِ الثّانيةِ من حياتِهم؟

العائلةُ ببناتِها الثّلاثِ والأخِ المُشْتَرَى يقفونَ مشدوهينَ حائرينَ، هاهي الشّقيقةُ الصّغرى معهم وفي يدِّها الخبرُ اليقينُ. وقد أكّد طبيبُ العائلةِ ما ذُيِّلَ في آخرِ التّقرير: "نعم الجينُ مطابقٌ ممّا يعني أنّها ابنتكم!"...

لنْ أُثْبِتَ بُنُوّتي ولكن قد أَثْبَتُ أُبُوَّتَكم. من ناحيتي لقد منّ اللهُ عليّ بعزيزةٍ احتوتْني بكليّتي، بعِنادي وغروري، ودرّبَتْني على الوقوفِ في مثل هذه اللّحظاتِ موقفَ القويّ الثّابت. لذلك سأقبّلُ جبينَكَ يا أبي ويديْكِ يا أمّي ووجناتِكُنّ أخواتي وأسلّم على أخي.

لا تعنيني هُوِيَتي ولا أرجو مالَكُم ولكن هدفي الحصول على محبتِكُم، فهل تبخلون بها عليّ أم أنّ اللّحظاتِ الحاليةَ ستعوّضُ عليّ الأعوامَ الخاليةَ؟

عانقوها، وقبّلوها واحتضنوها ولكن لم تقبلِ العيشَ معهم، طلبَتْ مهلةً لاسترجاعِ أنفاسَها؛ فقد أَتْعَبَتْها الحقيقةُ والسّعي إليها والوصولُ إلى والديها.

غادرَتْهم وركَنَتْ إلى قبرِ والدتِها، وَضَعَتْ عليه ورودَ بيضاءَ، وقَرَأَتْ لها الفاتحةَ وأَسَرّت إليها بالوجعِ الجميلِ الذّي تَكَبّدَتْه.وَرَجَعَتْ إلى دارِها تُقَلّبُ ذكرياتِها كأنّها شريطٌ بحجمِ البشريةِ وفيه حكايةٌ بلا حبكةٍ ولا نهايةٍ.

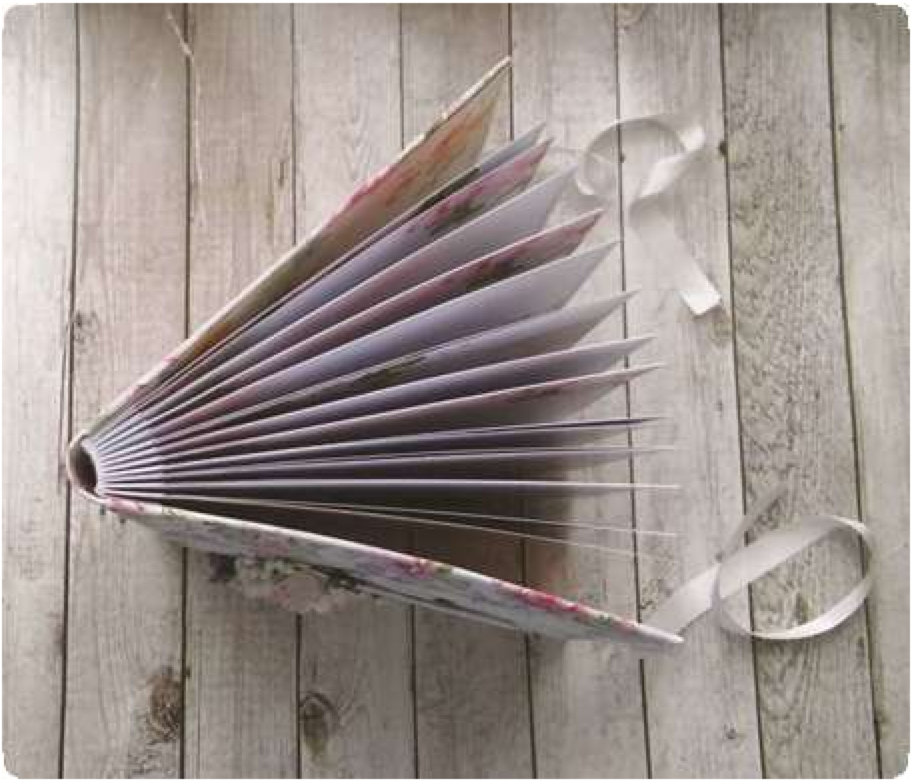
ربما يتخيّلُ للبعضِ أننّي سأنخرطُ في حياةٍ لا تُشْبهُ تربيتي ولا تَمُتّ إليّ إلّا بصلةِ الدّمِّ والقرابةِ؛ فما في الوجدانِ ثورةٌ على كلّ ما جَعَلَ الآباءَ يُرَخِّصون أبنائَهم ويُصَدِّقون أنّ أفعالَهم حلالٌ وما ارتَكَبوه يصبّ في مَصْلَحَتِهم، سامَحَهم اللهُ، ولكن، للحقيقةِ، أقولُ،وِفْقَ قناعتي:" المحاكمةُ يجبُ أنْ تَطالَ رموزَ المجتمعِ من رجالِ دينٍ وعلماءَ، أولئك الذّين تَخَلَّوْا عن واجباتِهم وتَرَكوا للسّحرِ وللتّقاليدِ السّبيلَ كي يعيثوا بالعبادِ شرًّا وفسادًا.

أَحْبَبْتُهُم قبلَ أن أراهُم وأَحْبَبْتُهُم اليومَ أكثرَ؛ فغَيْظي تَحَوَّلَ إلى شدّةٍ في العاطفةِ عندما رأَيْتُ انكسارَ الوالديْنِ ودموعَهم المتحجّرةَ وغصاتِ النّدمِ تفعلُ فَعْلاتِها مع كلّ كلّمةِ ترحيبٍ وطلبِ الصّفحِ والمسامحةِ.

لستُ أنا مَنْ يَنْتَقِمُ ويُحاسِبُ ولكن أيضًا لن أُغَيّرَ بوصلةَ حياتي. تكفيني اتجاهاتي وسأتقبّلُ قدري وأُرْضِي نفسي عن تأديةِ الرّسالاتِ التّي حمّلَتْني إياها حبيبتي الرّاحلةُ الباقيةُ.

سأعيشُ وحيدةً في منزلِنا وسأصلُ رحمي الذّي قُطِعَ عَمْدًا قبل أن أرى نورَ هذا العالمِ الخافتِ الحارقِ. وسأَوُدُّ وأحاولُ جاهدةً نسيانَ الماضي من ناحيتِهِم فماضيَّ معكِ كان جميلًا حقًّا. كنا ثُنائيًّا ضعيفًا؛ فصرنا روحًا واحدةً تُطْفِأُ لُهُبَ الشّرِّ وتُنيرُ سُبُلَ الرّشادِ بإذن الله.

الفصل الخامس



- صباح الخير.
- أهلًا لؤلؤتنا.
- ما بالُكِ؟ ملامحٌ حزينةٌ وعينان رقراقتان؟
- وَعْكَةٌ بسيطةٌ، لا تبالِ.
- اشتقنا إليكِ.
- ها أنا هنا، جِئْتُ لأُمْضِيَ نهاري معكم.
- على الرّحبِ والسّعةِ.
- لقد حَضَّرَتْ والدتُكِ الأطايبَ وأَرْسَلَتْ أخاكِ ليشتريَ المزيدَ.
- طعامُنا لذيذٌ، من يديّ ستِ الحبايبِ ويصبحُ ألذّ مع جمعتِنا.
- تَعالَيْ لأُرِيَكِ فساتينَ جديدةً تَبَضّعتُها من النّتِ وسراويلَ وقُمْصانَ. لقد دَفَعْتُ راتبي كلِّه وأَكَلْتُ نصيبي من الوَعْظِ والتّوبيخِ من الوالدةِ والأخواتِ.
- ملبوس العافيةِ، " حلوين وعَ الموضة ولابقيلك".
- حرامٌ ما تفعله تلك المبذّرة، خِزانَتُها مليئةٌ بالألبسةِ ولكنّه الهوسُ.(قالت شقيقتُها الكبرى).
- أمّا الأخت الصغيرة قالت لها:" هل تُعيرِينَني منها إذا ما دُعيت للاحتفالِ عند رفيقاتِنا؟"

ضَحِكَتْ لؤلؤةُ واتّفَقَتْ معهما على يومٍ محدّدٍ للنّزولِ إلى السّوقِ للتّبضّعِ كهديةٍ لهما على نجاحهما في الجامعة.

- الكبرى تَرَكَتْهُما وهي تُثَرْثِرُ:" يا لَكُنّ من مجنوناتٍ لا تُرَاعِين الأوضاعَ ولا تَشْعُرْنّ مع النّاسِ.
- أمّي، ماذا أُحَضّرُ؟ بِمَ أُسَاعِدُكِ؟
- ابْقَيْ مع أخواتِكِ. أنا أَنْهَيْتُ كلَّ شيءٍ.
- تَعالَيْ لنَتَنَاوَلَ الشّايَ ونَتَحَدَّثَ ونُشاهِدَ المسلسلَ، دقائق ويبدأ...

لم أشعرْ يومًا بلذةِ الطّعامِ مع الأحباءِ؛ كنتُ أَتَنَاوَلُه سَريعًا وهناك لم نَجْتَمِعْ حَوْلَ المائدةِ إلّا في المناسباتِ والأعيادِ.

- الحمد لله، أَكَلَ طعامَكم الأبرارُ. هل تَنَاوَلَ الوالدَ غَداءَه؟
- كلّا يا ابنتي، لم يرضَ يريدُك أنتِ أن تشارِكيهِ طعامَه.

حَمَلَتْ الصّينيةَ وابْتَسَمَتْ وَصَعَدَتْ إلى غرفةِ الوالدِ. كانَ حَديثًا بالنّظراتِ وفيه كثيرٌ من العَتَبِ والمَلامةِ والحبّ والحاجةِ والإعجابِ.

تَنَاوَلَ طعامَهُ واستَرْسَلْتُ بالكلامِ عن أيامي الماضيةِ وعن مُرَبّيَتي الفاضلةِ واختصاصِي وتَفَوّقِي وانتاجَاتي الأكاديميّةِ حتّى غَفَا كالطّفلِ الشّاردِ الحزينِ، مطمئنَ البالِ لحكايةِ ما قبلِ النّومِ.

نَزَلْتُ لأُكْمِلَ مسيرةَ يومِي، أَسْتَمِعُ إلى مشاغباتِ الشّابِ المُدَلّلِ مع أخواتِه البناتِ. هو الشّخصُ الذّي لا يُرْفَضُ له طلبٌ وتُنَفّذُ أوامرُه ولو كان الجميعُ أكبرَ سنًا منه."

طبعًا أنا لم يتجرأْ على اعتباري من ضِمْنِ خادماتِه ولكنّه بدأَ يغارُ من حَسْنِ معاملتي ودلالِ الأهلِ لي.

وناقَشْتُهُ وبيّنْتُ له أنّه من الأفضلِ له أن يَدْخُلَ إلى المطبخِ ويأتي بإبريقِ الماءِ بنفسِه لِيَشْرَبَ أو بصحنِ الفاكهةِ لوحده؛ فمَنْ يَخْدُمْ نَفْسَهُ مَلِكًا يَكُنْ. وهكذا بَعْدَ جُهْدٍ وباعٍ طويلٍ اقْتَنَعَ السّيدُ على مَضَضٍ.

واحتارَتِ الحَجَةُ بيننا وبينه واستَأْسَدَتِ الفتياتُ ونَفَشْنَ ريشاتِهن كالطّاووسِ الجميلِ المَزْهُوّ بحضورِه وجَمَالِهِ وسِحْرِهِ، ودَعَتِ الجَمْعَ وطالَبوني بتكرارِ الزّيارةِ وتَعاهَدْنا على التّواصلِ واتَفَقْتُ مع شقيقاتِي للنّزولِ إلى "المول" للتّسوّقِ الجمعةَ القادمةَ.

وقَفلْتُ راجعةً إلى دارتي، أُسَانِدُ وَجَعي ووِحْدَتي مع شعورٍ غريبٍ بالرّاحةِ والرّضى والسّعادةِ المُبَطّنَةِ. ليسَ سَهْلًا أن تَعيشَ حَقيقتَكَ وواقِعَكَ بصِدْقٍ وبَعيدًا عن الانْتِقامِ والبُغْضِ والكَراهيةِ.

كانَتْ جلسةَ صفاءٍ بين الأخواتِ الأربعِ: محادثةٌ في أمورٍ مختلفةٍ وخاصةً في نصيبِ الكُبْرى، لم تَكْتَمِلْ فَرْحَتُها إذ تَرَكَها خطيبُها لأنّها لم تَرْضَ العيشَ مع حَماتِها.

أمّا الوسطى فهي تَعْمَلُ وعندها هَوَسٌ للألبسةِ والأزياءِ والأصغرُ نَجَحَتْ في الجامعةِ وتَبْحَثُ عن عَمَلٍ لها، وطَلَبَتْ من لؤلؤة مُساعَدَتَها. تَنَاوَلْنَ العصيرَ وبعدها قُمْنَ للدّورانِ في " المول" الكبيرِ في أقسامِ الألبسةِ النّسائيّةِ. وبَقِينَ ساعاتٍ فَرِحاتٍ بما يُشاهِدْنَهُ واختارت كلُّ واحدةٍ منهن ما أعجبها ونَزَلْن إلى الوَسَطِ يُكْمِلْنَ نهارَهن بجَمْعَةٍ في قهوةٍ، يُدَخِنّ النّارجيلةَ؛ إذ ممنوعٌ عليهِنّ التّدخينَ أو النّارجيلة في المنزلِ بعدَ مَرَضِ والدِهن.

- سُرِرْنا كثيرًا بمُرافَقَتِكِ، لم نجتمعْ هكذا مسروراتٍ إلّا قبلَ العيدِ وحيث الزّحامُ والضّجيج.
- اليومُ جميلٌ بصحبتِكِ لؤلؤة! يجب أن نكرّرَها ولو مرة شهريًّا.
- إن شاءَ اللهُ في الأعطالِ والإجازات.
- لِنَرْجِعْ! لقد كثُرَتْ رنّات "الموبايلات" تتصلُ من المنزلِ؛ فهي الأمّ تخافُ على كريماتِها، وتُعْلِنُ تأخرَّنا.

صَعِدْنّ السّيارةَ وتَوَجّهْنّ نحو المنزلِ على صوت إليسا "وقالو سعيدة في حياتها"، وبكاءُ البناتِ كلّهن مصاحبًا تلك الأغنية.

- ها قد رجعنا، و"بناتك صاروا عندك"! اسمحي لي أن أرجِعَ إلى بيتي، لقد تَعِبْتُ اليومَ كثيرًا وغدًا عليّ الإستيقاظُ باكرًا؛ فكثيرٌ من العملِ ينتظرُني.
- حبيبتي، كنتُ أَرْغَبُ في بقائِكِ ولكن لن أَضْغَطَ عليكِ أكثر. سيأتي اليومُ الذّي أَضُمُكِ فيه إلى قلبي في بيتِكِ هنا دون أي شعورٍ بالتّطفّل أو الانزعاج.
- سيأتي، سيأتي إن شاء الله... سلامٌ يا بنات، أراكُنّ قريبًا وسلامي للشّابِ الجميلِ وإلى لقاءٍ قريبٍ. قبلاتِي وتحياتي للغائبينَ والحاضرين.

غادَرْتُ وفي قلبي وجعٌ ولكن لا أستطعُ البقاءَ. يلزَمُني زمنٌ طويلٌ كي أعتادَ على نَمَطِ حياتِهم.

أنا بحقّ مسرورةٌ معهم ومسرورةٌ لقراري بالبَقاءِ في مَنْزِلِي؛ فهناك رائحةٌ عطرةٌ لوردةِ حياتي وكلماتِها وخيالِها وكلِّ شيءٍ يحكي عنها ويُخَبّرُ عن أسرارِها وسَرِيرَتِها.

أَخَذْتُ حمامًا وحَضَّرْتُ كوبًا من الشّاي وحَمَلْتُ أوراقَكِ وتَمَدّدْتُ على الأريكةِ أنـهَلُ من مَعينِ كلّماتِكِ.

بينَ دَمْعَةٍ وابتسامةٍ حقبةٌ مليئةٌ بحِكَمٍ وأحداثٍ غنيةٍ وثريةٍ ولا يخلو الأمرُ من بعضِ فُكاهاتٍ تَجْعَلُني أرتاحُ كأنّي أتَأَرْجَحُ فوقَ الغيماتِ وأَلْمُسُ القمرَ وأَعْدُّ النّجماتِ. وغَفَوْتُ مع مذكراتِكِ ومعي أحلامٌ لا تُعَدُّ ولا تَحْصَى، على أملِ مشاهدتِكِ في منامِي.

- مرحبًا كيف الحال؟
- لابأس، الحمدُ لله.
- مَرَرْتُ كي أَدْعُوَكُم.
- جميلٌ جدًا...!
- إلى أين ؟ وما المناسبةُ؟
- لحضورِ حفلِ تخرّجِي واستلامِي شهادةَ الماجستير، الجمعة السّاعة السّابعة مساءً، جميعُكم مدعوون. نتناولُ العشاءَ ونحتفلُ، ونتسامَرُ ونتسلى. هل وَصَلَتِ الدّعوةُ؟
- إن شاء الله. سأخبرُهم ونأتي ومعنا باقةُ وردٍ وعلبةُ حلوى أيضًا.
- هههههه، بانتظارِكم.
- السّلامُ عليكم. (حوار بين لؤلؤة وأختها الصّغرى.)

ومساءُ الجمعةِ لا يُشْبِهُ أيَّ مساءٍ؛ هو حافلٌ بالضّحكاتِ، وبالأهازيجِ، وبالأحاديثِ والاستماعِ للموسيقى والرّقص والفكاهة. لقد كانَ مزيجًا من حريةٍ وحصةً للتّعبيرِ عن فرحِ اللّقاء واستعادةِ شخصٍ بُتِرَ من عائلتِهِ بفعلٍ شائنٍ.

كلّ ما يمكن تصوّرُه كانَ حاضرًا إلّا الحزنُ والبكاءُ والألمُ؛ غصةٌ فقط في قلبِ اللّؤلؤة، فلو كانّتِ الغاليةُ حاضرةً لكانت الفرحةُ تامةً. ولكنّه الموتُ، قاسي القلب، مفرّق اللّذاتِ ومشتت الأحبابَ أخذها فرَحَلَتْ. وكلُّهم، مهما حاولوا، لا ولن يكونوا العَوَضَ. رغم أنّ جزءًا مني التَأَمَ وطابَ وجَنَحْتُ للمسامحةِ ومتابعةِ حياتي وكأنّ شيئًا ما كان؛ فأنا اليوم أحاول كتابةَ سطورَ عمري برحمةٍ ومحبةٍ.

لا تخلو عباراتي من المَلامةِ ومع ذلك استوعبَني الأهلُ وحَضَنوني وأَثْنَوْا على وَجَعِي وباركوا فَرَحي. هم منْ تبقى لي في هذه الدّنيا: الوالدُ العاجزُ، والوالدةُ الطّيبةُ، والشّقيقاتُ الحنوناتُ والأخُ المظلومُ مثلي تمامًا، لكن الفرق بيننا هو فقط أنّه لم يعلمْ بعد الحقيقة كاملةً ولا بنيةِ أحدٍ أن يُخْبِرَهُ حتّى لا تَهْتَزَّ أركانُ الثّقةِ بالعائلةِ أكثر فأكثر...

هو الصّغيرُ المهضومُ، صاحبُ حضورٍ يُسْعُدُ كلَّ مَنْ حَوْلَه وهو الصّديقُ لكلّ فردٍ بالعائلةِ على حدًى، دبلوماسيٍّ في تعاملِه، أقوى من ظروفِهِ. تَرَكْناه مع الوالديْنِ ودَخَلْنا إلى غرفتي. جَلَسْنا نَتَحَدَثُ مع بعضِنا البعضِ ما لا نَجْرَؤ على الإفصاحِ به أمامَ الأَهْلِ. فَتَحْنا قلوبَنا وأَصْغَيْنا لبعضِنا. ذَرَفْنا دُموعًا وقَهْقَهْنا عالًيا؛ هي جلسةُ بناتٍ صبايًا بامتياز.

جميلةٌ حقًّا تلك اللّحظاتُ التّي نَسْرُقُها من الرّوتينِ ومن الجديّةِ ومن الفروضِ. نحتاجُ إليها بين الفَيْنةِ والأخرى. شعورٌ يُخالجُني ويُجْبِرُني على البقاءِ وحيدةً ويا ليتَ ذاكَ الحاجزَ الاسمنتيَّ في داخلي يَتَحَطّمُ كي أُقِرَّ بحاجتي إلى العيشِ بكنفِ عائلتي ولكن...!

الفصل السّادس

وكان اللّقاءُ وغُرِزَتْ الصّنارةُ في قَلْبَيْنِ: الشّابُ زميلُها وهو دعاها لشربِ القهوةِ كي يَسِرَّ في أُذُنَيْها كلماتٍ وهَمَساتٍ في كلّ اللّغاتِ تُتَرْجَمُ.
عواطفٌ ومشاعرٌ وكان التّبادلُ في النّظراتِ وفي الكلماتِ وفي الفَرَحِ اللّذيذِ الذّي لا يُشْبِهُهُ فرحٌ ولا يوازيهِ غير إقامةُ حياةٍ مُشْتَركةٍ وبناءُ عائلةٍ.
كان التّقاربُ سريعًا واتّفَقَ رائدُ مع لؤلؤة على خطبةٍ بوجودِ الأهلِ والأصحابِ من أجلِ الحصولِ على بركةِ الوالديْن .وظَهَرَتْ أميرةً بفستانِها الزّهريّ وتاجِها الفضيّ المُرَصّع. رَقَصَتْ الشّقيقاتُ ودَبَكَ الشّبابُ وكانت ليلةً رائعةً؛ الجميعُ سعيدٌ لأنّ اللّؤلؤةَ سعيدةٌ والكلّ يُجْمِعُ على انسجامِ العروسيْن.
بَدَأَتْ حياةٌ جديدةٌ: مسؤوليةٌ وجُهْدٌ واختيارُ منزلٍ وأثاثٍ وهي البسيطةُ المُعَقّدةُ التّي لا ترضى إلّا أن يكونَ كلّ شيءٍ على أتمّ المواصفاتِ وتحفةً في الجمالِ.
بعد دوامِ العملِ، صار العروسانِ ينزلانِ إلى المعارضِ لاختيارِ الأثاثِ والمستلزماتِ واتفَقَا على السّفرِ في رحلةِ شهرِ العسلِ عوضَ إقامةِ حفلِ زفافٍ، ولكن لا بدّ أولًا من التّشاورِ مع الأهل وأخذِ موافقتهم.
وعُقِدَ القِرانُ بأقلَ من شهرٍ بعد أن أنهَيا فرش الشّقةِ وسافرا...
والصّدمةُ الكبرى حصلتْ عندما رَجِعا؛ فقد كانا حزينيْنِ ومُتَفِقَيْنِ على الطّلاق.! بلا أسبابٍ وبدون مبرّراتٍ تُذْكَر، حَصَلَ الفِراقُ كما الارتباطُ بصورةٍ سريعةٍ ودون بلبلةٍ. هي اختارَتْ الصّمتَ والعملَ وهو أَكمَلَ حياتَه كأنّ شيئًا لم يحْدُث. حاوَلَ أهلُها معرفةَ السّببَ، ولكن عبثًا جربّوا دون جدوى؛ فهي لم تنطِقْ بحرفٍ.
وحدُهُ الشّقيقُ الغريبُ عَرَفَ لماذا انفصلا؛ فهو توأمُها في العُمُرِ وفي القَدَرِ وفي تَحَمّلِ الصّعوباتِ والهُمومِ.
لقد نَعَتَ رائدُ لؤلؤةَ بالمُخادعةِ لإخفائها حقيقةَ تربيتِها وولادتِها وهي التّي لا ذنبَ لها والتّي أظهرَتْ حكمةً تُحْسَبُ لها في التّعاملِ مع مشكلتِها وصالَحَتْ

نَفْسَها وأهلَها؛ ترى الزّمن يُكافأها بالعقابِ الشّديدِ: الطّلاقُ في شهر العسل! بشاعةُ البشرِ تُخفيها القشورُ وتجملّها الظّواهرُ.
ترَكَها لذنبٍ لم تَقْتَرِفْهُ؛ فهي لم تَخْتَرْ ألّا تَتَربّى بكنفِ والديْها. جريمةٌ عوقبَتْ عليها البريئةُ الجميلةُ.
وقرّرتْ عدم الارتباطِ مرةً أخرى وإكمالَ مسيرةِ حياتِها في الاهتمامِ بالمرأةِ المظلومةِ وفي كلّ المجالات وكيفما وقع الظّلم. وقرّرتْ أيضًا التّعويضَ لعائلتِها، العائلةُ التّي رَفَسَتْها لأنّها البنتُ الرّابعةُ المرفوضةُ بحسب نواميس المجتمعِ المليءِ بتقاليدَ مُهْتَرِئةً لا تَمُتُّ لا للدّينِ ولا للإنسانيّةِ بصلةٍ.

"لؤلوَة النّاضجةُ والنّاجحةُ والذّكيةُ والجميلةُ حظُها سيءٌ!" هكذا تُرَدّدُ والدتَها بينها وبين شقيقاتِها، اللّواتي ارتَبَطْنَ بزيجاتٍ تقليديّة ويَعِشْنَ حياةً جافةً. سَقَطَ رائدٌ ومعه حلمُ الفارس الآتيّ فوقَ فرسٍ بيضاءَ من تفكيرِ لؤلؤة وحساباتها للغدِ.

...ومع أوراقِكِ الخريفيّةِ أَنْهَلُ راحتي وأَسْتَمِدُ قوتي يا غالية! هكذا هي الحياةُ تُمْعِنُ في سرقةِ حقوقِنا وتُجَرّدُنا حتّى من إرادتِنا. إن كانت حساباتُ الزّمنِ بالسّنوات فحساباتي باللّحظاتِ؛ خمسةٌ وخمسون عامًا من الجهادِ والكفاحِ، خمسةٌ مهملاتٌ في براحِها والبقيةُ احباطاتٌ وفشلٌ وكثيرٌ من الحزنِ والألمِ وقليلٌ من السّعادةِ والفرحِ ورغم ذلك أصبو دومًا لسني حياتي الأولى. أنا تلك الطّفلةُ التّي تُضْحِكُها أفراحُ الآخرين وتُبكِيها أحزانُهم . هي التّي أقصى مايُرَطِّبُ أيامَها حلوى الصّغارِ من شوكولا وغزلِ البناتِ وغيرها من الحلويات البسيطةِ الشّعبيّة والرّكضُ تحتَ المطرِ واللّعبُ بالوَحْلِ والكتابةُ على الجدرانِ وبناءُ بيوتٍ على الشّطآن.
هي فقط خمسةُ أعوامٍ، و أمّا الخمسون فبقيةٌ باقيةٌ.
مع أنّ قلمي طفلٌ مدلّلٌ إلّا أنّه عايَشَ كلَّ ثانيةٍ من هذا العمرِ العتيّ بلهفةِ المُتَعَطّشِ لحياةٍ رائعةٍ بين الحروفِ والسّطورِ وفي أمكنةٍ خياليّةٍ وبعيدةٍ وعلى أرضٍ واقعيّةٍ مؤلمةٍ تاراتٍ وتارةٍ هادئةٍ رزينةٍ.نعم! فبكلّ امتنانٍ وشكرٍ وحمدٍ

شهورٌ وأُكْمِلُ العقدَ الخامسَ والخمسون. يا ذاكَ العمرَ الثّقيلَ خفّفْ عني أوزاري وأوزانِكَ.

دعني أطيرُ كفراشةٍ أوعصفورٍ أوصقرٍ؛ فالطّيرانُ يَمُدّني بطاقةٍ رهيبةٍ تَجْعَلُني أحيا لحظاتٍ خالدةً تمدُّ عُمْرِيَ أعمارًا وأعمارًا.... لاأريدُ إلّا نهاياتٍ في الجلولِ والأحراجِ والبساتينِ وبجوارِ النّبعِ أوحتّى تحتَ النّخيلِ، وفي الجبلِ والبحرِ ومعي قوةٌ تُجابِهُ العواصفَ وتَتَحَدّى الفصولَ وتَغْلِبُ الغَيْظَ والقَيْظَ والصَّقْعَ والصّقيعَ، وقدرةٌ على الكتابةِ والتّأليفِ حتّى الرّمقِ الأخيرِ والكلمةِ الأخيرةِ وآخرِ نُقْطَةِ حِبْرٍ في دُواتي وعلى وَرَقَتي الأخيرةِ أخطّ الوداعَ ليومِ الدّين.

غوغل يحتفلُ بذكرى مولدي والفيسبوك ووسائلُ التّواصلِ والأصدقاءُ، الكلّ إلّاي: فأنا أجمعُ دمعاتي في قارورةِ العمرِ وأمسحُ بعضَهاعن وجنتي وأخُطُّ بأناملي كلماتٍ لاتشبه تعاويذَ السّحرةِ، لا وليست خرافاتٌ إنّماهي نبضاتُ قلبٍ ومشاعرُ وأحاسيسُ.

الجميعُ يطفىء الشّموعَ، أمّا أنا فأضيئُها ؟ وأتناولُ وجباتي اللّغويةَ والتّحلياتِ الأدبيّةَ مع قلمي وشاشتي وطاولتي وكتبي وأوراقي وركنيَ الجميلِ الذّي هومهبطُ إلهامي ومَرْتَعٌ لبناتِ أفكاري وكوكبٌ لإبداعاتي

كلّ عامٍ وأنا قَلَمٌ يشدو بكلماتِ خواطرَ وقصائدَ وقصصٍ ومقالاتٍ وروايات ٍ....

ومن همساتِ قلمي المغرورِ، أختار هذه التّمتمات لأدوّنها لك وأتشاركها معكِ، يا حبيبتي الوحيدة:

" إذاكانَ حُبَّكَ المِدادُ والقرطاسُ والقَلَمُ
لماذا أنا مُتهمةٌ بالرّحيلِ وخيانةِ الحبيب؟
يا معشرَ العالمين حجمَ الأكوانِ أُحِبُّهُ
وياصاحبَ القلبِ الحزينِ والذّكرى والحنينِ
بماذا تُراكَ راغبًا:بسطوري أم آهاتي أوشجوني
لن أقِفَ لأدافعَ عني دائمًا بل سأرفعُ رأسي وأُغني

أمل حياتي مع أم كلّثوم
وأبتسمُ بعينيّ وأرسمُ صورتَكَ على وجهي
قليلٌ قليلٌ إذاماقُلْتُ لكَ حياتي
فأنتَ عندي بكلّ الآخرين
وأنتَ وحدُكَ تكفني عن جناتِ النّعيمِ
في دنيا الزّائلين.
أتراكَ وضَعْتَ على قلبِكَ حجرًا
وأُصِبْتَ بالعمَى والبُكْمِ والصّمَمْ
وخَزَلَتْكَ حواسُكَ وإحساسُكَ
وانتَفَضْتَ لرجولتِكَ من كرامةٍ مُهيضةِ الجناحيْن
وفاتَكَ أنّكَ لوشَنَقْتَ حبَنا لرأيتَهُ في المنامِ
حارسُكَ الشّهيدُ
كأسُكَ الفارغةُ، مِنْفَضَتُكَ الملآنةُ، ومِنَضَدَتُكَ المكسورةُ
شواهدُعلى معارِكٍ تَحْتَدِمُ كلَّ ليلةٍ، وقتَ خسوفي وساعةَ احتمائي بسَحاباتِ الخريفِ
نظاراتُكَ المرميّةُ وأقلامُكَ الغبيةُ وأوراقُكَ الطّائرةُ
تُرْشِدُني إلى ركنِكَ في وطني وترفعُ لي أشرعةَ الشّوقِ وتأخُذُني إلى شطآنٍ لؤلؤيّةٍ
وتَصْنَعُ لي تاجًا مُرَصَّعًا وسوارًا سميكًا وقِلادةً عليها رسمُكَ وخاتمَ سليمانَ الحكيمِ.
هناك مع النّوارسِ يُقامُ لناحفلٌ وبالأمواجِ نعلو ونتأرجحُ. نلمسُ النّجومَ ونُعَطّرُ الغسقَ بأزكى الزّهورِ.
متهمةٌ أنا وهوليس بالاتهامِ الحقّ؛ إنّما هو فعلٌ جميلٌ عن سابقِ حبٍّ وحنين
إليكَ يامالكَ العمرِ ورفيقَ الرّوحِ حُكمِي،
حبيبي إلى ما بعد المغيب...
وكأنّني وراءَ البِحارِ حَيّيتُ....

أنصفيني ياغربةَ سنيني
ومعي حبّي شوقي وحنيني
كَذِبَ مَنْ قالَ الوطنُ أمٌّ
فكيف للأمّ أن تَخْذِلَ وليدَها
تترُكُهُ للذّلِ، للفقرِ وللعوزِ
سقيمًا حزينًا، وجائعًا"مسكينًا
يلهثُ وراءَ رغيفِ قمحٍ غريب
ويتنشقُ هواءً أغلبُه فاسدٌ
ويُقْتَلُ ويُشَرَّدُ ويُهانُ ويُسْتَعْبَد
باللهِ عليكم! ألم يصبحْ الوطنُ مثل زوجةِ أبي
يشبهُ الشّريرةَ السّاحرة
وكأنّه معتقلٌ وسجنٌ ومنفًى
دعوني في غربتي مع أنيني
هناك سوف أدّعي أنّني مواطنٌ
برتبةِ مهاجر! هاربٌ من وطنِه
مُمَزّقٌ لهُوِيَتِهِ وناكرٌ لانتمائِهِ
عندما يكونُ الوطنُ كأمّي
سيحضُنُني، ويعانِقُني، ويشْفيني
يُطْعِمُني، ويُفْرِحُني ويسقيني
وإنْ حَدَثَ غيرُ ذاك فوطني حينها هو غربتي
والمهجرُ مكانٌ يحميني
من عذاباتِ الدّنيا وصعوباتِ
العيشِ ويلفَحُني العليلَ
من عِطْرِ الياسمين وتهبُّ عليّ
بين الحينِ والحينِ رياحُ الحنينِ
قاسٍ ياوطنَ النّجومِ
ظالمٌ يا لبنانَ

لاجىءٌ في بلادِ اللهِ
بلاحقيبةٍ أو جوازِ سَفَرٍ
بقلبٍ وحَواسٍ وقَلَمٍ وقِرْطاسٍ
ورزمةِ وَرَقٍ.
لِيَرْسُمَ خريطةً ويَكْتُبَ تاريخًا
لوطنِ الأرزِ والصّنوبرِ."...

ومع الطّبيعةِ كلُّ شيءٍ رائعٌ وساحرٌ، ومع الأحبابِ كلُّ حَدَثٍ جميلٌ. ينهَمِرُ المطرُ وترتفعُ درجاتُ الصّقيعِ، يَنْعَكِسُ في قلبي دفءٌ وفي حُلْمي حنينٌ لِتلكَ اللّحظاتِ التّي لازالت تَلِحُّ على ذاكِرَتي وتَتَصَدّرُ الصُّورَ للجمعِ، وللحكايا، وللكَسْتَناءِ المُدّلّلةِ ولِلذّرةِ البيضاءِ، ولِلبطاطا المشويةِ، وللبخارِ المُتَصاعِدِ من إبريقِ الزّهوراتِ، وللموقِدِ في وَسَطِ الغُرفةِ ولشاشةِ التّلفازِ وحتّى لارتفاعِ أصواتِ السّهارى الذّين يلعبون الورقَ أوالبرجيزَ، ولِأصواتِ الرّعدِ والبرقِ ولِطَرَقاتٍ على البابِ من قِطةٍ شريدةٍ.

والعشاءُ حساءٌ لذيذٌ وقطعةُ حلوًى ونداءٌ من الحنونةِ إلى الأَسِرّةِ بعد حملةِ نظافةٍ وإطفاءِ المصباحِ وأحلامَناالبريئةَ وحرارةَ الأمان.

الفصل السّابع



على سبيلِ الحياةِ وقيدِ الذّكرياتِ...
عندما تجمعُ لحظاتِ الحاضرِمع الذّكرى، تَقِفُ الدّمعاتُ في المآقي وتَتَلوّى الحروفُ في المحابرِ وتَصْرُخُ الكلماتُ على فُوَهَةِ الأقلامِ.

ماذا جَنَيْتَ يا إنسان؟ وبمَ تُفسّرُ ما أنتَ عليه الآن.؟
جبروتٌ وتَكَبّرٌ وتَخَفٍ وراء إحداثياتِ المجتمعِ الفخمِ من جاهٍ ومالٍ وعزٍّ مُلْتَوٍ وانبعاثاتٍ لمداخنَ في صيفٍ حرُّه مثلُ جَهَنّم وحَطَبُه يابسٌ يَنْخُرُهُ دودُ الرّبيعِ

وتُفَتّتُهُ عُقَبُ سيكارةٍ من راعٍ جاهلٍ أوعاشقٍ فقيرٍ يهْوَى أميرةَ القَصْرِ ويتمنَى قُرْبَها ولومن وراءِ السّورِ أوفي آخِرِ مقصورةٍ مُتَسَلِّقًا الجدرانَ.
هكذاهي باختصارٍ رحلةُ قويٍّ اعتقدَ أنّه وملكَ الموتِ أصحابٌ وكانَ مُتَيَقّنًا أنّ عمرَهُ سيطولُ طالماهو يَمْلِكُ المالَ والجاهَ لِمَنْ حولَه ورَحَلَ تاركًا الكثيرَ من الشّتائمِ والغزيرَ منَ اللّعناتِ.
لم يتركْ له خِلٌّ ولا رفيقٌ حتّى الوَلَد فرَّ والزّوجُ هَرَبَ ومَاتَ على كرسيّه الهزّازِ ولم تَكْتَشِفْ رحيلَهُ إلّا خادمةٌ بالصّدفةِ؛ طَرَقَتِ البابَ ولَفَتَها الصّمتُ العميقُ والسّكونُ الرّهيبُ فاتصلَتْ بالجيرانِ وهكذا تَحَوّلَ الهدوءُ إلى صَخَبٍ وبدّدَت صافرات الذُّعْرِ سكوتَ المكانِ وغصَّ بسياراتٍ الإسعافِ.
ودُفِنَ بفعلِ مَكْتَبٍ واراهُ الثّرى، وقلةٌ قليلةٌ ممن يحبونَ أن يُؤجروا ساروا خلف نعشِهِ وتَرَكوه هناكَ وحدَهُ لمصيرٍ لايعْلَمُهُ إلّا الله. ودمعاتُ المظلومينَ حجارةٌ من سجيلَ لمعتوهٍ مجنونٍ ظنّ أنّه يستطيعُ أن يأمرَ الشّمْسَ لتَشْرُقَ من مغيبِها وأنّ البدرَ مرآتُهُ وأنّ البحارَ انعكاسٌ لذاتِهِ. ماتَ أونَفَقَ كلاهما رحيلٌ ولكنّ الفَرْقَ أنّ الأولى تُقالُ للبشرِ والثّانيةُ في غيرِهم تُقالُ!
لنحافظْ على إنسانيّةٍ لامنةَ لنا فيها ولنُكْرِمْ بعضَنا؛ فنحنُ قومٌ رُحَّلٌ ولوسَكَنا المرتفعاتِ ولنملأِ الكونَ لؤلؤًا وألماسًا وذهبًا. من التّرابِ وإلى التّرابِ نعودُ.
أيتها الغافيةُ مابالُ حلمِكِ؟ لقد سَرَقَ النّجومَ وسَجَنَ العصافيرَ وحطَّ فوقَ الأغصانِ، ينتظرُ الشّروقَ وبكلِّ عنجهيةٍ رَحَلَ إلى كانونَ حيثُ الصّقيعُ والبَرْدُ والطّقسُ المجنونُ. هناك على قِمَمٍ بيضاءَ، استقرّ تارةً يبني له منازلَ وتاراتٍ رجالًا وكلّها ثلجيّةً. مع يقينِهِ أنّها بالرّغمِ من واقعيتِها ستذوبُ وتَتَحوّلُ إلى مجاري أنهارٍ وجداولَ ومستنقعاتٍ وبحيراتٍ وستنزلُ إلى الأعماقِ تغوصُ ويسَبحُ فيها السّمكُ والحيتانُ وتعلو وتنخفضُ لتكون أمواجًا بحسبِ مزاجِ الرّياحِ وأعماقِ البِحارِ.
دعكَ من النّهوضِ وتابعْ يومَكَ لتغفوَ معكَ الأساطيرُ والخُرافاتُ ووُريْقاتُ الحبورِ ورزنامةُ الذّكرياتِ.
على أنغامٍ رائعةٍ ووسطَ أجواءٍ بديعةٍ، تَتَأَرْجَحينَ في الخيالِ تتطايرينَ في الهواءِ تَعْبَثينَ مع الغيماتِ...

أرسلِي لنا بريدَكِ الفصليّ ولاتغفلي عن نفحاتِ الجمالِ، نحتاجُ إلى رسائلَ تُبَشّرُنا بتغاريدِ الكلماتِ
وبالحاحٍ نطلبُ اللّجوءَ إليكَ: سحرُك الذّي لايهدأُ ولاينام...

يازمانَ الحُسْنِ

ومكانَ الرّوعةِ

وكونَ الجمالِ

انظرْ إليّ

حتّى أُتْقِنَ

وصالَكَ

ودعْني أَهيمَ

في بُرجِكَ

لقد صالَ

القلبُ منكَ

والبالُ جالَ

ورَقَدَ الحلْمُ

جنبَكَ

ومَلَكَ الفِكْرَ

خيالُكَ

ظلُّكَ سحابةٌ

تَأْخُذُني منكَ

إليكَ

إشراقتُكَ

نورٌ متوهِجٌ

كوكبٌ منيرٌ

وفي النّفسِ

بدرٌ مضيءٌ.

معكَ تَسجدُ

أبجديتي

ولكَ تدعو

كلماتي.

شابَتْ نواصي حروفي وغزا البياضُ كلماتِها، ولاتزالُ قصيدتي تَرْنَحُ بغنجٍ وطفولةٍ ودلالٍ، تَبْتَسِمُ بحركاتِها وتَضْحَكُ من علاماتِها وتُثَرْثِرُ في زوايا النّسيانِ تَأْخُذُني إلى كتابِ الذّكرياتِ وتَمُرُّ صورُ الأحبابِ وتَظْهَرُ لوحاتُ الماضي كأنّها أوراقُ الخريفِ وأمطارُ الشّتاءِ وأزهارُ الرّبيعِ ونسماتُ الصّيفِ...

تميلُ النّفسُ إلى رُكْنٍ جميلٍ ومعارضَ فنيّةٍ وشرفاتٍ ياسمينيّةٍ. يبرزُ القلمُ والقِرْطاسُ يَتَعَجّبُ والدّواةُ تفيضُ بعطرِ الزّنبقِ. أتنشقُّ رائحةً زكيةً وأكتبُ رحلةَ عمرٍ في نهايتِها السّعيدة. نادرًا ما أَتْرُكُ المحالَ لنفسي لمحاكمةِ النّاسِ؛ فقد سَرَتْ العادةُ أن يجعلونني دائمًا متهمةً وتصدرُ بحقّي كافةُ الأحكامِ والتّهمُ متنوّعة. ولكنّ إيماني وضميري وقلبي هي فقط حِجَج وبراءتي، ومن خلالِها فقط يُمْكِنُ لهم أن يحكموا على أعمالي وماتبقَى مجرّدُ ثَرْثَراتٍ عابرةٍ لا تُؤَثِّرُ في حياتي....

بكلّ حالٍ أنا وحدي مَنْ يتلقى الطّعناتِ ووحدي مَنْ سيواجُهُ الصّعوباتِ؛ فَلِمَ الاتكالُ على مزاجيةِ مجتمعٍ أقلّ مايُقالُ عن أعرافِهِ أنّها خاليةٌ وعن تقاليدِه باليةٌ.

أناالمرأةُ التّي تَصْمُدُ في وجهِ الرّياحِ ولو اقتُلِعَتْ أغصاني وحُطِّمَتْ فُروعي وبُعْثِرَتْ أوراقي، فما في ذاتي عروقٌ حيّةٌ، فيها قوةٌ لتعودَ من جديدٍ، تَضُخُّ الدّماء في اليَباسِ فيعودُ العودُ نَضِرًا أخضَرَ. فالأنوثةُ لا تُسْجَنُ في كمٍّ من السّنواتِ ولا تُحَدُّ فقط بالإنجابِ؛ ولو كانت هذه هي سُنةُ البقاءِ ولكنْ ليست جريمة إذا كانَ قدري أن أكونَ أمًّا بديلةً وبالوصايةِ ولِيَعْلَمِ الجميعُ أنّي تَفَوّقْتُ على أغلبِ الأمهاتِ من حيثُ التّربيةُ وبناءُ الإنسانِ ولؤلؤتي دليلٌ وشاهدٌعلى ما أقول. لقدعلّمَتْني أمومتي ما معنى الحياةِ وكيف أعيشُ بسعادةٍ وهناءٍ.

مع خطواتِها سِرْتُ وبيدِها تَمَسَّكْتُ والأشواكَ من دروبِها أَزَلْتُ وغَالَبْتُ معها الظّلْمَ والإرهابَ والنّاسَ كلّهم جلّادٌ لايهمُهُ من الأمّ إلّا المخاضَ ومن الشّرفِ قطراتٍ معدودةٍ من الدّماء.

لن أصغيَ إلّا لمحبتي لها ولكُرْهي للظّروفِ التّي ستُبْعِدُني عنها في يومٍ من الأيامِ. ولكن رفيقتي وابنتي وحبيبتي ويا مَنْ يُمَثِّلُ كلّ ما أعطاني اللهُ من نعمةٍ، لن تَحْقُدَ ولن تَكْرَهَ؛ بل سَتُطْفِئُ لهيبَ نارِ الثّورةِ على عقولٍ عِجافٍ وتُرَطِّبُ ألسنةَ قَوْمٍ اعتادوا على الرّياءِ.

لؤلؤتي انثري سِحْرَكِ، وعِلْمَكِ، وجمالَ روحِكِ على المدى وانطلقي برحلةِ البَحْثِ عن حقيقةٍ سوف تُبَيّنُ للكونِ كلّه قيمةَ الولدِ وخاصةً الفتاةَ؛ فهي البركةُ والابتسامةُ وهي نافذةُ الرّحمةِ وبابٌ للجنةِ.

فلا تَرْفسوها فقط لأنّهاأنثًى! وغيرُمعقولٍ أنّنا مازلنا نُميّزُ بين الذّكرِ والأنثى في الإنجابِ والهُويةِ وغُمَّ علينا أن وأدَ الفتاةِ حرامٌ وإكرامَها فَرْضٌ ومعاملتَها بإحسانٍ سُنَةُ النّبيّ المُصْطَفَى عليه الصّلاةُ والسّلامُ.

امضي يالؤلؤتي البيضاءَ وتَوَهّجي أمامَك كثيرٌ من السّوادِ وعليكِ واجبُ تبديلِه بكلّ ماأوتِيَتْ يمينُكِ من نورِ العِلمِ والمعرفةِ والإيمانِ. عليكِ مسؤوليةُ تكملةِ الرّسالةِ؛ فلا تتوقّفي عند رحيلي وسلّحي نفسَكِ بطيبِ الكلامِ وحكمةِ النّساءِ، فغالبًا ماتجدين أنّ أرضًا قافلةً قد تصيرُ واحةً غنّاءَ بفضلِ اللهِ.

من صباحِكَ رَجَوْتُ هدأَتي
ووَهَبْتُكَ أزمنةَ مسائي
فلاتسِءِ الظّنَ بكلماتي
أَغْرُفُ من جمالِكَ بياني
وأَجْمَعُ من روعتِكَ فصاحتي
أنتَ قصيدةٌ على بحر الهوى
وعلى وزنِ الذّهبِ وقافيةِ الياءِ
حياتي وذكرياتي، قلمي ودواتي
لا يَمَسّنَّكَ شُعاعُ الغُرورِ والكبرياءِ
لاتحتاجُ إلّا لقلبٍ ينبُضُ بحبِّكَ
وسطورٍ تُمْلَأُ بوجدانِكَ وسِحْرِكَ
تارةً قلمي يجنحُ إليّ وتاراتٍ كثيرةً إليكَ
لحظةٌ كأنّهاعامٌ تقفُ عليها أحلامي
معك رَيْعانُ إبداعي وقمةُ بلاغتي
الصّقورُ تحمل إليّ منكَ القوةَ والوَقَارَ
والغيومُ تَنْقُلُ لي رسائلَ الخيراتِ
والموجُ يهدرُ بدعواتٍ مع النّورسِ
وتتَهَجّدُ العصافيرُ بنَغَمِ الفُصولِ
خريفي كآبةٌ واصفرارٌ
وشتائي صقيعٌ وثلجٌ

وربيعي مرَّ كأنّه من الأمانيّ

والصّيفُ الحارُ لايستهوي فؤادي

غرامي عيناكَ وحبّي ثورةُ أشواقٍ

أحْسِنْ مثوى الأيامِ حُرْمَةَ الفِراق

تثأرُ للسّنواتِ وتَزْأَرُ بكلّ جُرْأَةٍ وثَباتٍ

حضورٌ كأنوارٍ وآمالٍ وغيابُكَ

إلهامٌ وحنينٌ وترانيمُ الانتظارِ

مابينَ الشّفقِ والغَسَقِ نكونُ

وتلتقي معنا وبنا الأضدادُ

دعْ عنكَ كبرياءَكَ وامضِ سيرًا إلى قلبي
فلا يدخُلُهُ إلّامَنْ تَعِبَ وشَقِيَ وقَدّمَ شهاداتٍ في الشّوقِ والحبّ.

ليس صحيحًا وليس سهلًا امتلاكُ مِدادًا رمزُه نَبْضٌ ورسمُهُ خطوطٌ وإنّما الحقيقةُ في اتجاهِ النّفسِ إلى وطنٍ هُوِيَتُهُ العِشْقُ ونشيدُهُ الهوى ورايتُه تُعانِقُ اللّهبَ وتَغْزو الجَليدَ وتغدو في يمينِ حبيبٍ انتظرَ فوقَ القِمَمِ....

آهٍ من حبيبٍ جالبٍ للدّمعِ ومُقَدّمٍ للحُزْنِ ويُشْعِرُ بالوَجَعِ ورُغْمًا عنه يُمْعِنُ في ذاتِ الحبّ. هكذا كانَ رفيقُ دربي نارًا وثلجًا. ومنه تَعَلّمْتُ فنونَ التّعاملِ مع التّعبِ والقَهْرِ وكلّ ما يَمُتُّ للدّنيا من قلبي في الصّعوباتِ والمشاكلِ. امتَهَنْتُ الصّبرَ في مواجهةِ أذى ذوي القُرْبَى ورَمَيْتُ كلَّ كلماتِ الهزءِ ووَضَعْتُ أصابِعي في آذاني. صَمَمّتُهماعن الاستماعِ لنقصٍ في ذاتي وفي قِسْمَتي ونَصيبي. الجلّادُ الاجتماعيّ لا يَرْحَمُ، يَنْزِلُ فينا الضّربَ وعلى الجُرْحِ.

نَنْزِفُ بصَمْتٍ نَتَلَقَى السّوْطَ ونَسْكُتُ ونُواجِهُ النّظراتِ القاسياتِ والكلماتِ المؤذياتِ ونمضي سالكينَ الأشواكَ لِنَصِلَ إلى ما اعتقدْنا أنّه الرّضى والقناعةُ للذّاتِ. أَخَذْتُ وليدةً ورَبَيْتُها وكَذَبْتُ حتّى على نَفْسي. أَحْبَبْتُ نفسي بها ولأجلها وأَحْبَبْتُ براءةً تُرْمَى عن عَبَثٍ. وعامًا بعدَ عامٍ تَوَطَّدَ الحُبُّ بيننا وماتَ صاحبُ البيتِ ومَلَأَتِ الصّغيرةُ حياتي. واجَهْتُ بها العالَمَ، وعَلَّمْتُها القوةَ مع خُطُواتِهاالأولى، وأَرْضَعْتُها التّسامُحَ مع الحَليبِ.

غَدَتْ جميلةَ الشّكلِ والرّوحِ. لا يَنْقُصُها سوى حقيقةً حَاوَلْتُ دَفْنَها مع كتابِ مُذَكَّراتي في القَبْو. ومَضَيْتُ مُصَدّقَةً لكِذْبَةٍ: أنّي أمٌّ وأَنْجَبْتُ ولستُ بديلةً ولا مُنْتَهِكَةٌ لِحُرُماتِ النّعَمِ! وأنا لست وحدي في هذه القصةِ؛ أنا تَلَقَيْتُ وهي رَمَتْ مُضْطَرَةً، الضّعيفةُ الوَهِنةُ والمغلوبُ على أَمْرِها.

لؤلؤتي تَبْقَيْنَ كَنْزي وحياتي ولوكَرِهَ الشّرْعُ وعَارَضَني الدّينُ سأتَحَمّلُ كلَّ عواقبِ الأمْرِ. لمْ ولَنْ أُبَرّرَ فِعْلَتي ولا جريمةَ والدتِكِ. اغفري وحاسبي مَنْ تَراكَمَتْ أَعرافُهُ وتقاليدُ مُجْتَمَعٍ لا زالَ يَرْزَخُ تحتَ وطأةِ اللّازمِ والضّروريّ والعَيْبِ وعقولٍ ذُكوريّةٍ يَلْزَمُها الإعدامُ والشّنْقُ.

حارِبي الكراهيةَ بالمحبةِ، بها تَتَربَّعينَ على عرشٍ ذي مَكانةٍ ساميةٍ وراقيةٍ وفَخْمَةٍ وتحقّقينَ رسالةً صعبةً في إلغاءِ أفكارٍ مُدَمّرةٍ للإنسانيّةِ وكافرةٍ باللهِ وجاحدةٍ بالنّعمِ. مثلُكِ أنا وُلِدْتُ شَريدةً وإن كنْتُ قد تَرَعْرَعْتُ بينَ أحضانِ عائلتي: ذكرياتي صعبةٌ وطفولتي صامدةٌ صُمودَ الثّلجِ في نَيْسانَ.

كُنْتُ رافضةً لكلّ ما يُريحني ويُدْفِئني ويُسْعِدُني. لقد وَضَعْتُ نفسي في مجموعةِ سندريلا وبائعةِ الكِبريت والأميرةِ المخطوفةِ. كُنْتُ أَمْشي تحتَ المطرِ، أَصِلُ إلى البيتِ وأنا أتساقطُ بَلَلًا وأنال ما لَزِمَ من السّخريةِ والهزْءِ، وكُنْتُ لا أراجِعُ دروسي كلّها ولا أُنْجِزُ واجباتي؛ كُنْتُ مثلَ السّيارةِ التّي يَجُرّونَها وفيها عِطْلٌ ما أو خزانُها نَفَذَ وَقودُه.

باختصارٍ، كان تَمَرّدي على فِكْرةِ أنّي زائدةٌ في دنياهم، ولا يُعيروني اهتمامًا كما يليق بي، هكذا كُنْتُ.

كَبِرْتُ وكَبُرَ معي حسُّ المسؤوليةِ، رَدَمْتُ حفرًا ونتوءاتٍ في داخلِ وِجداني، ووَضَعْتُ صماماتٍ في أذنيّ وسِرْتُ رَغْمَ أنفِ حُزْني بقهقهاتٍ قويةٍ وضَحِكاتٍ مُتتابعةٍ وابتساماتٍ دائمةٍ.

ناضلْتُ كي أصبحَ شابةً مُسْتَقِلةً وحقّقْتُ اسمًا لي، واحْتَرَمْتُ شهاداتِ النّاسِ والعائلةِ حولَ شخصيتي؛ ولكن شهادتي بذاتي كانَتْ مُزَعْزَعُةً غير كاملةً تبغي أمرًا ممكنًا وغير مستحيلٍ ولكن في وقتٍ ما غير مُحَقّقٍ.

كلّ شيءٍ في حياتي، كان من الصّعوبةِ بمكانٍ لدرجةٍ أنّي كنْتُ مُتَرَدّدةً وخائفةً ومع ذلك مغرورةً ومُعْتَدّةً بنفسي ومُتَكَبّرةً. غَرَقْتُ في خيالٍ أدبيّ مع الأدباءِ والكُتّابِ والشّعراءِ وابتعدْتُ لفتراتٍ عن واقعٍ هزيلٍ.

إذا أَضَعْتَني، تَجِدُني وراءَ كتابٍ لطهَ حُسيْن أو المنفلوطيّ أو العقاد أو جبران، أو إحسان عبد القدّوس أو لِسِيَرِ الأبطالِ أو لنزار قباني ومحمود درويش؛ هنا وَجَدْتُ بُغْيَتي وراحتي وملجأي.

لقد سَقَطَتْ عني صفةُ "الاجتماعيّة"! نعم، لا تروقُ لي اجتماعاتُ النّساءِ ولا اجتماعاتُ الصّحبةِ والأصدقاءِ؛ أعتبِرُها دونَ مستوى تفكيري. الدّنيا عَلّمَتني الكثيرَ وتَلَقّيْتُ الضّرباتِ العديدةَ ولا أخفي الأشياءَ الجميلةَ التّي مَرَرّتْ بها وكلّها صَنَعَتْ مني قلمًا سيّدًا مُبْدعًا وخارقًا للقلوبِ والعقولِ. التَمَسْتُ من أبجديتي حمايةً وحَصانةً، ونَثَرْتُ ما خَفِيَ من أناملي وما ظَهَرَ، وكَتَبْتُ سِرًّا وعلانيةً: أحببْتُ بكلماتي، كَرَهْتُ بكلماتي، انتصَرْتُ بكلماتي، وانهزمْتُ بكلماتي، هي كانَت أنا!". وَطَني كلماتٌ بَنَيْتُها حرفًا حرفًا، وكلمةً كلمةً، وكتابًا كتابًا. أنتمي لروحانيّاتِ الحياةِ، وهُوِيَتي مخطوطةٌ من خَشَبِ الأرزِ، وريشاتي من صقورِ الشّرقِ ودُواتي بحورُ الهوى مدادُها عواطفٌ وأحاسيسُ ملائكيّةٌ.

مَعَكِ لؤلؤتي، عَرَفْتُ معاني بناءِ الإنسانِ وأهميةَ تربيتِهِ وتَحْفيزِهُ ورَفَعْتُ راياتِ التّقديرِ لكلّ الأمّهاتِ المُنْجِباتِ والمُرَبِيّاتِ. وَأَيْقَنْتُ أنّهُ ليسَ من الضّرورةِ بمكانٍ أنْ تتعاملَ بِسَلْبيةٍ مع واقِعِكِ؛ ادرسوا الآياتِ القرآنيّةِ ستجدون معانٍ غزيرةٍ تفيضُ بمتطلباتِ حياتِنا. نعم، التّبَنّي في الإسلامِ ممنوعٌ ولكن في

آيةٍ يقولُ الباري عزَّ وجلّ: (لا تقتلوهُ عسى أن ينفَعَنا أو نتّخذه ولدًا)[٢] إذن نَسْتَطيعُ تربيةَ إنسانٍ لمْ نُنْجِبْهُ وليس تشريعًا من البَشَرِ...

أنت بقاموسِ الدّنيا ابنتي وبوجداني ابنتي ورفيقتي وحياتي. لم أندمْ أبدًا على تَرَبْيتِكِ، كُنْتُ جدًّا مُتفاعلةً، كُنْتِ مرآةً لذاتي.

الطّفلةُ الصّغيرةُ الغريدةُ المليئةُ بالحياةِ صارَتْ شابةً قويّةً، واجَهَتْ قَدَرَها بتؤدةٍ وصَبْرٍ وحِكْمةٍ وثَباتٍ.

الحبُّ قليلٌ والعِشْقُ لا يكفي والهوى سَرْمَديٌّ معكِ، كبيرتي وصغيرتي اللّؤلؤة الجميلةُ. تَرَكْتُ لكِ مُذكّراتي؛ هي تُشْبِهُ ورقَ الخريفِ من هنا ومن هناك، تُشْبِهُ جنوني وفنوني. كلّما أرَدْتِ المُكوثَ تحتَ فَيْئِها، اقرئيها، وافرَحي فقد كُنْتِ فرحي الدّائمِ وسعادتي الأبديّةِ، وناقشيني تعْلَمينَ جيّدًا منكِ ومن الكثيرين تَعَلّمْتُ مساراتِ خطوطي؛ عربيّة الحَرْفِ والمَوْلِدِ والمَثْوى والثّرى والقَلَمِ.

فارسةٌ لأصيلةٍ بيضاءَ، صهيلُها في مَكةَ ووَقْعُ حافرِها في القُدْسِ، بُراقي أسرى بي ورَفَعَني قُدرةً وهَيْبَةً ووَقارًا، وَأَسْبَغَ عليّ نِعَمًا: كُنْتِ أنتِ كلّها يا نَغَمي الرائع وشِعْري العُكاظيّ ونَثْري الياسمينيّ الشّاميّ.

الحُبُّ ليسَ جَهْلًا؛ الجَهْلُ هو الكُرْهُ والبغضاءُ. الوُدُّ ليس ذِلًّا: الذُّلُّ هو الاستئثارُ والتّفرّدُ واحترامُ الذّاتِ، هو أساسٌ لاحترامِ كلّ الخَلْقِ من بشرٍ وحَيوانٍ وحَجَرٍ وطَيْرٍ.

فستانُكِ الأبيضُ الذّي رَقَصْتِ به في حفلِ عيدِكِ العاشرِ لا ينفكُّ يَتَطَايرُ شذاهُ في أرجاءِ المعمورةِ ولا تزالُ الورودُ والحلوى تُلَوّنُ سهراتِ الطّفولةِ المَحْرومةِ والمَسْروقةِ والمَهْدورةِ. وحتّى "روب" التّخرّجِ لشهادتِكِ الثّانويّةِ أَسْدَلَ روعتَه وبَيّضَ سوادُه قلبي وأيامي وتلكَ الشّريطةُ الحمراءُ التّي لُفّتْ بها شهادتُكِ كانَتْ بِشارةً طيبةً وميثاقًا لشخصيةِ ابنتي التّي معها وبها حقّقْتُ انجازاتٍ مُهِمَةٍ في حياتي؛ وكان أعظمُها أمومتي وبُنُوّتَكِ.

ولا أُغالي إذا ما جَزَمْتُ أنّهُ لا يُشْبِهُنا إلّا ضبابُ أيلولَ وشمسُ نَيْسانَ وزهرُ آذارَ ونسيمُ آب ورذاذُ النّدى فوقَ خمائلِ الوَرْدِ. التمسْتُ من صَوْمَعَتي السّماحَ

[٢] سورة القصص، آية ٩.

لي كي أنْتَشِرَ بعَبَقِ جمالِ روحِكِ وحضورِكِ الرّائعِ كي أُحَطِّمَ وحدتي وأَهْدُمَ جمودَ حروفي وأَنْثُرَ عِطْرَكِ وسِحْرَكِ على المَلأِ. أَعْلَنْتُكِ حبيبتي ومِنْبَري ودواةَ قلمي وقِرطاسي.

أُنْشودَتي التّي وَجَدْتُها ورَدّدْتُها وأبياتَ شِعْري التّي نَظّمْتُها وأَلْقَيْتُها في مساءاتي ولقاءاتي.

لا تَشْغُلي بالَكِ في البَحْثِ عن أمورٍ لا تَهُمُكِ، ركّزي يا مُبْدِعَتي على مُساعدةِ الضّعفاءِ وانصري المظلومينَ، هنا ستجدينَ فيكِ مصانعَ ومَتاحِفَ ومعارِضَ تُفْتَحُ للطّفولةِ، ولِلأمومةِ وللإنسانيّةِ المكلومةِ المقهورةِ المَسلوبةِ. سَأَسِرُّ في أُذُنَيْكِ أحداثًا أَبْكَتْني وذَبَحَتْني من الوريدِ إلى الوَريدِ ووَقَفْتُ بَعْدَها قويّةً بفَضْلِ الله وكَرَمِهِ. مِثْلُ الشّبَحِ، وَقَفْتُ بين هاماتٍ من الظّالماتِ والظّالمينَ ومُروّجي نظريةَ العبدِ والأسيادِ.

واتُهِمْتُ بكثيرٍ لم أَفْقَهْ حتّى لجريمتي، حاكموني وأذلوني وأمعنوا فيّ وجعًا وألمًا وضحكوا من دُموعي؛ فلم أبقَ في مُحيطِهِم، تَرَكْتُهُم لِصغائرِ أمورِهِم وتابَعْتُ سَيْري. التَقَيْتُ بمن هم ألعنُ وأشرّ يحاسِبونكِ على هَفَواتٍ وسَهَواتٍ ويمنعونَ عنكِ حُقوقَكِ وتَرَكْتُهم وتابعتُ سيري. وفَرَضْتُ على الجميعِ خاصيتي وشخصيتي وصَنَعْتُ لي هيبةً ووَقارًا ولَمَعْتُ في سماءِ النّجوميةِ ولم أَغْتَرَّ ولم أَفْتَرْ. فقد استدليْتُ على سُبُلي من قساوةِ البَشَرِ واسْتَهْدَيْتُ لرُشْدِي من شَناعَتِهم. وليس صحيحًا أنّ الشّرّ أقوى ولكن سُبْحانَ اللهِ لنا قسمةٌ من هذا ومن ذاك.

وأنتِ يا لؤلؤتي كُنْتِ قِسمتي الخَيّرةَ.

عندما تُوُفِيَ الزّوجُ استَقَلّيْتُ عن كلِّ المساوِىءِ وقدّمْتُ أوراقَ اعتمادي لكلّ السّفاراتِ التّي تُعْنَى بالإنسانِ والحياةِ. أنْشَأْتُ مؤسسةً لمساعدةِ المرأةِ تحديدًا وهذه هي المؤسّسةُ التّي أُريدُها أن تبقى تُقَدِّمَ الانجازاتِ والمُساعداتِ النّفسيّةِ والماديّةِ لكلّ ضعيفةٍ قليلةِ الحيلةِ ومنبوذةٍ من مجتمعٍ أَعْرَجَ وأَحْوَلَ وأَعْتَرَ وأَغْبَرَ. سَأَكْتُبُ بعضَ الحالاتِ التّي مَرّتْ علينا وبكلّ واقعيّةٍ هي ليستْ نماذجَ ولكنّها حالاتٌ حَصَلَتْ وتَحْصُلُ في بلدي. ولكي أكونَ مُنْصِفَةً معكِ ولا أُحَمّلُكِ الرّهطَ الغَليظَ بَعْدَ رحيلي، قليلٌ من الصّورِ وكثيرٌ من الكتاباتِ سوف تكونُ

وَقودًا يُضْفي على المُعْضِلاتِ حُلولًا وأمثولاتٍ. كُنْتُ قَد ذَكَرْتُ بعضَ الحالاتِ لأسماءَ حقيقيّةٍ، وسأُتابِعُ، يا حبيبتي، عساني أُضيءُ قناديلًا في ظُلماتِ ليالي القَهْرِ والعِهْرِ والوَعْرِ. من هنا وهناك نسوةٌ مَرَرْنَ في شريطِ حياتي:

اسمُها عزيزة زَوَجّوها وهي في الثّالثةِ عَشْرَة. أَنْجَبَتْ أَرْبَعَ بناتٍ فطَلَّقَها السّيّدُ الكريهُ، وانطَلَقَتْ للعَمَلِ وفَهِمَتْ أنّها تستطيعُ أن تتَخَطّى المبادىءَ والثّوابِتَ والقِيَمَ. كَفَرَتْ حتّى بالدّينِ وبالدّنيا. انتُهِكَتْ العزيزةُ وصارت رذيلةً بفضلِ المُجْتمعِ المُسْتَبِدِ، لا ألومُها ولكن أَحْقُدُ على أَفْكارِهم وأتَمَنى حَرْقَها وإبدالَها بإيجابيّاتِ العِلْمِ وأَبْجَدياتِ النّورِ.

عزيزة تَرَكَتْ وراءَها أَرْبَعَ عزيزاتٍ، تحوّلْن في هذا المجتمعِ إلى ذَليلاتٍ مع الأَسَفِ.

أمّا مريمُ فهي لَيْسَتْ المجدلانيّة وإنما هي الذّليلةُ التّي غارَتْ في رذائلِ الوَجَعِ ودَخَلَتْ في العِشْقِ الممنوعِ وأَحَبّتْ زوجَ أُخْتِها وانتَظَرَتْهُ وما زالَتْ...

وحليمةُ بائعةُ الوَرْدِ تَزَوّجَتْ للمرةِ الثّالثةِ وعندَها من الأولادِ تِسْعَةٌ وكلّهم رُوّادُ الشّارعِ، يبيعونَ الوَرْدَ والمَحارِمَ، والشّوارعُ تَشْهَدُ عليهم في القيظِ وفي البَرْدِ، والمُتّمرّدةُ الحُلوةُ التّي تَعْتَبِرُ كلَّ النّاسِ لا تفهمْ وعلمُها وجمالُها هما لها الدّرْعُ والوَقاءُ والمَلْجَأُ. تعيشُ بمُفْرَدِها؛ لا يُعْجِبُها أحدٌ تَرْفُضُ وتَنْقُدُ وتَشكو وتَسْخَرُ ومِن كلّ مَنْ حولِها فقط لأنّها محرومةٌ من عاطفةِ الأمومةِ؛ فمنذُ وِلادتِها تَرَكَتْها الحنونةُ وهَرَبَتْ لِتحيا عيشةً في ظلِّ رَجُلٍ آخَرَ وأبناءٍ جُدّدٍ.

كيف وافَقَكِ قلبُ الأمِّ ورَمَيْتِ وراءَكِ أربعَ بناتٍ صغيراتٍ؟ كلّ هذا فقط كي تَنْتَقِمي من شَقيقَتِكِ التّي سَرَقَتْ بَيْتَكِ وطَليقِكِ وبناتِكِ ولأنّ بيتَ أَهْلِكِ غرفةٌ واحدةٌ لا يَتْسِعُ لكم!؟ كيفَ خَلَعْتِ عباءَتَكِ وارْتَدَيْتِ أَلبسةً شِبْه ألبسةٍ: مُمَزَّقةٍ وعلى الموضةِ كما يُقال؟!

- " الدّني بدها هيك، بدي عيش!"
- عزيزة! يوجدُ أشياءُ إذا ما خَسِرْناها لم تَعُدْ لحياتِنا معنًى، فحاذري من الانزلاقِ في الرّذيلةِ.

- ليستْ رذيلةٌ ما أَفْعَلُهُ، فأنا أَعْمَلُ ولكنّ الرّذيلةَ في البيوتِ. ماذا قدّمَ لي أبي وأمّي؟ أهلي طَرَدُوني وباركوا علاقةَ مَرْيَمَ بوالدِ البَناتِ، وهو الآن بالسّجنِ وهي تَنْتَظِرُهُ... إن شاءَ اللهُ انتظارٌ مُؤَبّدٌ. ظَلَمَني وضَرَبَني وذَلّني. كُنْتُ أَشْتَهي لُقْمةَ الخُبْزِ. و كانَ يُجْبِرُني على الاستِعْطاءِ وطلبِ المالِ من النّاسِ، تصوّري أنّه كان يُفَجّرُ غَضَبَهُ فوقَ جَسَدي الهزيلِ بالكرباجِ و كانَ ممنوعًا عليّ الصُراخُ. كانَ يُرْسِلُ البناتَ عندَ أمِّهِ ويَبْدَأُ يكيلُني ضربًا ويؤلِمُني وياويْلَتي إذا أَصْدَرْتُ صوتًا. كُنْتُ أَرْتَجِفُ خوفًا وفَزَعًا وأَضَعُ في فَمّي مِنديلًا كي لا تَفْلُتَ مني الآه وليس الآخ!! لا أعتَرِفُ بهم، قَصَدْتُ أهلي. حياتي بدونهم ودونَ طليقي أحسنُ بصِدْقٍ. ولكن تبقى الغصةُ كبيرةً؛ فأنا مُضْطَرةٌ أن أَبْتَعِدَ عن بناتي وألا أَرَاهُنّ إلّا مراتٍ قليلةٍ لأنّني لا أَمْلُكُ مَسْكَنًا. أَعْمَلُ عِنْدَ صاحبةِ محلِ أَلْبِسةٍ، أُسافِرُ معها وأَعيشُ بسلامٍ دونَ وَجَعٍ ولا قَهْرٍ ولا ظُلْمٍ. عزيزُة التّي هي اليومَ أمامي مختلفةٌ عن عزيزة التّي تركْتُها من عَشْرِ سَنَواتٍ. الدّنيا غَيّرَتْني شكلًا ومَضْمونًا. ولسْتُ أَنْدَمُ على عيشتي ولكن كلّي نَدَمٌ على كلّ لحظةٍ بقيتُ فيها تَحْتَ سقفِ ما يُسَمّونَه بيتًا وما هو إلّا مُعْتَقَلٌ وسِجْنٌ ومكانٌ لِلعذابِ. الحمدُلله أعيشُ براحةٍ وسعادةٍ على الأقلِ بلا خَوْفٍ أوجوعٍ.

عاشقان حتّى الرشفة ما قَبْلِ الأخيرة. هي الصّغيرةُ التّي زُوّجَتْ باكرًا وهو الرّجلُ المُتَزِنُ وهي متطلباتُها تَخْتَلِفُ عن عطاءاتِهِ. هو الجِدارُ الذّي لهُ داخلٌ وله خارجٌ، انفَصَلا وعندهم أولاد. هي اخْتارَتْ زوجًا كبيرًا يُدَلّلُها وهو ما زالَ يَتَزَوّجُ ويَتْرُكُ باحثًا عن بديلٍ لها...

لسْتُ بصَدَدٍّ الدّفاعِ عن الأولادِ ولكن هنا الكلمةُ لها ولها فقط؛ معاناتُها لا تُقاسُ بمعاملاتٍ قاسيّاتٍ وانفصالِها لا يُشْبِهُهُ أيّ طلاقٍ...
الودُّ يتبادلانهُ بالنّظراتِ وتَراشُقُ الاتهاماتِ يتبادلانهُ في المحاكمِ. تَعْتَرِفُ أنّه وفي لحظةِ ضَعْفٍ فَلَتَ عِقالُها ولكنّها استرْجَعَتْ ذاتَها ووَجَدَتْ لها زوجًا ومنزلًا وعملًا. قَوِيَتْ شخصيتُها وتَحَوّلتْ من المطيعةِ الرّقيقةِ إلى المُتَمَرّدةِ

القويّةِ ولم تَقِفْ عندَ هذا الحدِّ. فكما أترابُها ينتقِمْنَ من اللّباسِ؛ فأولُ ما يَفْعَلْنَهُ يَخْلَعْنَ الحِجابَ بغالبيتِهِن ويَبْدَأْنَ رِحْلةَ السّفورِ وهكذا برأْيهِن ينْتَقِمْنَ من بعضِ ما اعتراهُن من إجحافٍ بحقوقِهِن وقَمْعٍ لحريّاتِهِن. حقيقةً لو كانَ للعيونِ لسانٌ لَتَفَتّقَتْ ألسنةُ الشّعرِ عن قصائدَ في الإطراءِ والمديحِ والوَصْفِ

والغَزَلِ! ألا ليتَ قلمي يُتَرْجِمُ ماسَمِعَهُ من دواوينَ في الودِّ والحبّ والأُلْفةِ والتّراحُمِ.

ورغم ذلك، كُتِبَ عليهما الفِراقُ عِنْدًا واثباتِ قُوةٍ وغَلَبةَ واحِدٍ على الآخِرِ،كمْ أُحِبُّ وأتْمَنَى:

أنْ أُعانِقَكَ بِشِدةٍ ونَدْخُلَ الجَنةَ

مِثْلَ عِناقِ النّدى لوُرَيْقاتِ الوُرودِ

وعناقِ الأذانِ لنَغَماتِ الطّيورِ

وعِناقِ النّظراتِ لِجَمالِ الحَوْرِ

وتلكَ أحلامٌ ولَيْسَتْ بأضغاثٍ

فَمَنْ آمَنَ ارتقَى وسَمَا وَوَصَلَ

يَلْزُمُني من كَيْدٍ وقَلْبٍ واتصالٍ

وبِشارةٍ تأتي بَعْدَ طولِ انتظارٍ

الرّكْضُ وراءَ رؤيا سَرابٍ

والدّنيا مِدادُ هَواءٍ وماءٍ وتُرابٍ

اختَرِ الدّبَّ أو الغَوْصَ أو الطّيرانَ

لا نُشْبِهُ العباسَ ابنَ فِرناس

ولا نُزايدُ على الصّقورِ والنّسورِ

ولا نصنعُ طائراتٍ ولا أجْنِحةً

وحتّى لا يُمكِنُنا أن نَمِلَّ كزعانفَ
نمتطي أمنياتِناونَتَسَلّحُ أَحْلامَنا
ونُشْهِرُ أقلامَنا ونَرْفَعُ الأشهادَ
وما حياتُنا إلّا حروفٌ كُتِبَتْ
وكلماتٌ سُطِرَتْ وأَقْدارٌ
نبضاتُنا تَلاقَتْ والعَباراتِ
تَخَطّيْنا القِمَمَ لِنَبْلُغَ الفَضاءَ
لسْتُ مُخطئةً إن كان إيماني دُواةً
وكُنْتُ أنا القِرطاسَ.
يميني أنّ الحبّ روحٌ
وماعدا ذلك كلّه أشياء...
خيالاتُ الأيامِ تُراوِدُني
وحُلْمي وأُمنيتي رفيقٌ هو
تَوْأَمُ إلهامي وأجملُ آماليّ
خُذوني إلى تَنورٍ أواعتقوني
فما بي إلّا سلامٌ وحبٌّ وحنينٌ
وإيمانٌ أكيد.
لن أكونَ من المَلائكةِ ولا من الجانِ
يُفْرِحُني أننّي حواءُ وأنّكَ آدمُ
وكلّانا من ترابٍ.

خُذْ عني كثيرًا من الهَوَى

فما استقامَ عِشْقٌ

ولا انحنى؛ إلّا إذا كانَ الحَبيبُ

هو القُشورُ وهو اللّبُّ والنّوَى

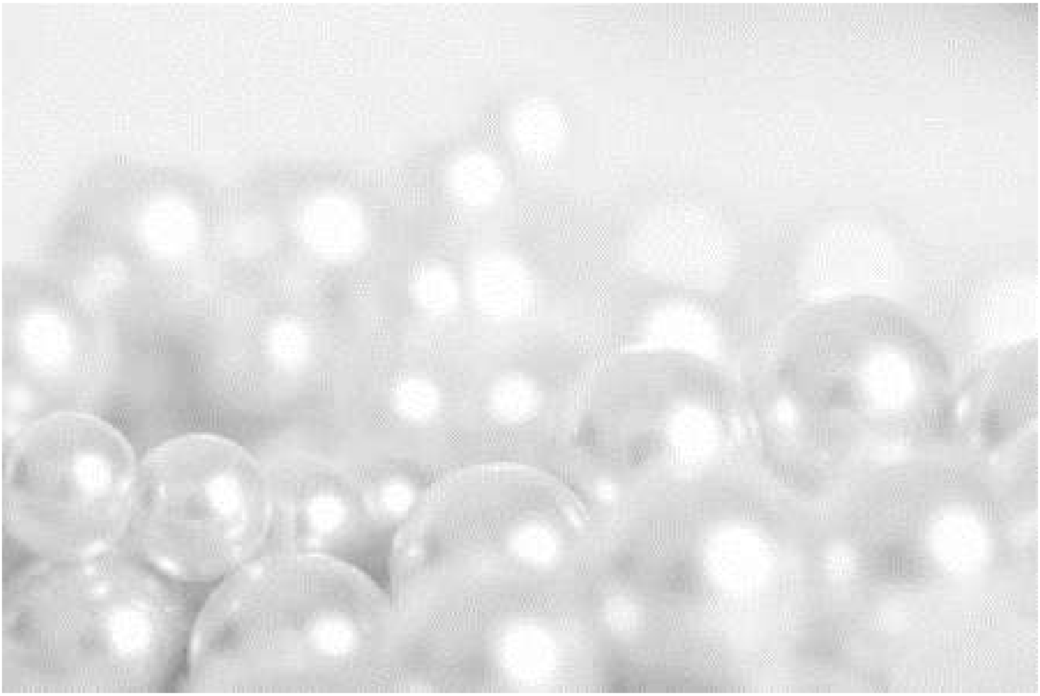
وهُوَ الكونُ في مِدادِهِ

وهو المُعْتَمَرُ والظّلالُ

والمُتَكَأُ والسّلوانُ والثّريّاتُ

وكلّ الفَرحِ والوَرَى.

الفصل الثامن



بسمِ اللهِ وبِحَوْلٍ منه وقُوةٍ أُنْجِزَ اللّؤلؤ المنثور، فيه واقعٌ وفيه خيالٌ وفيه كثيرٌ من الآراءِ والمواقِفِ والعديدِ من الحالاتِ وكلّها تدورُ في محاورِ المرأةِ ولكن مقالي هذا سوفَ أُوَجِهُهُ لِمَنْ يَتَهِمون المرأةَ المُتَحَجّبةَ المُتَدَيّنةَ بالتّخلّفِ وبالرّجعيةِ وبمحبةٍ وبحروفٍ ياسمينيّةٍ أخطُّ كلماتي:

للّواتي يَشْتَغِلْنَ بِمَهَنِ الإعلامِ ويَتَشَبّهْنَ بعارضاتِ الأزياءِ وبالرّاقصاتِ وبِلا مغالاةٍ ودون مبالغاتٍ؛ فواحدتُهُن تَسْرِفُ على شكلِها أكثر بسنواتٍ ضوئيّةٍ ممّا تَهْتَمُ بهِ ببرنامجِها ولسانِها ومضمونِ موضوعِها المُثارِ. لذا تراها تَفْتَعِلُ الهزَّ والحَرَكاتِ لِتَلْفِتَ نظرَ الضّيفِ وتُشيحَ بتركيزِهِ عن الحديثِ إلى النّظرِ والابتعادِ عن البَرنامجِ المُقَرّرِ؛ لذا وُجِبَ عليهن ضَبْطُ أقلامِهن والخجلُ من أَنْفُسِهِن.

تَنْزِلُ واحدةٌ منهن انتقادًا ليس لِمُتَحَجّباتِ اليومِ وإنّما لِجَدّاتِهن ولسيداتٍ يُفْتَرَضُ أنّهُن مَثَلٌ وقُدْوَةٌ للمرأةِ عامةً. إذا شِئْتِ التّبرّجَ والتّعرّي، افعلي ولكن لا يَحُقُّ لكِ الخَوْضَ بأمرٍ أقلُّ ما يُقالُ فيه أمرٌ وفَرْضٌ ربانيّ فلا شكّ في أنّك حينها ستكونين مُلْحِدةً أكثر من المُلْحِدينَ وضالةً أكثر من الضّالينَ وحتّى من المَغْضوبِ عليهم. دعي الخَلْقَ لِلخالِقِ ومارسي تَفاهاتِكِ بعيدًا عن الحِجابِ. انْظُري إلى خَلْقِ اللهِ من نباتٍ، هل تُثْمِرُ الأشجارُ بنُواةٍ عاريّةٍ: كلّها مخبّأة ٌوملفوفةٌ بأغطيةٍ عدّة. وحتّى الحيوانُ، رُغْمَ أنّه لا يَتَزَيّنُ بِرِداءٍ ولكن سُبحانَ ربّي، لقد كَساهُ صوفًا ووَبْرًا وجِلْدًا سَميكًا، يعني باختصارٍ كلّ شيءٍ له مكانٌ يَخْتَفي فيه كَي يُظْهِرَ الحُسْنَ والجميلَ وما تَوَجّبَ ظُهورُه وإشراقُه.

أمّا بالنّسبةِ لكوني امراةٌ مُتَحَجّبةً؛ فقد أَصابَتْني سُخْرِيَتُكِ بالصّميمِ. بالإضافةِ إلى أنّكِ حقًّا لا تَسْتَحِقين إلّا الشّفقةَ؛ فأمثالُكِ عِزّةٌ ومَذَلّةٌ ليس فقط للمسلمين ولكن لِلعالمِ أَجْمَع. لَوْ عَلَمْتِ أنتِ ومثيلاتُكِ معاني الحياةِ، لما تَجَرّأْتِ على شتيمةِ المُحَجّباتِ واعتبارِهِن جاهلاتٍ. يليقُ بِكِ أن تُسْقُطي عنكِ أقنعةً تُخْفي جوارحَكِ المُتَعَرّيةَ من إنسانيتِها؛ فنحن يا سليقةَ تَحَجّبْنا لأنّنا مُقْتَنِعاتٌ بالحِجابِ ولأنّنا مسلماتٌ وليس صحيحًا ماقَصَدْتِهِ: فمنَ الطّبيبةِ والمُعَلمةِ والمُهَنْدسةِ وحتّى سيدةِ البيتِ إلى النّاجحاتِ النّابغاتِ، ولم يمنعنا الحِجابُ لا مِن العِلْمِ ولا مِنَ العَمَلِ، يارمْزًا للتّفاهةِ بعيدًا عمّا تصفينَ به نفسكِ كعالِمَةٍ أوفَقيهةٍ. فأنا مسلمةٌ ومُتَحَجّبةٌ وفخورةٌ بحجابي وبِعِلْمي وبِقَلَمي! دعينا نَنْصَحُكِ فنحن رمزٌ للانطلاقِ ولسنا سجيناتٍ. لا العولمةُ ولا العَلْمَنةُ ولا حتّى شهادةٌ أُخِذَتْ

بالواسطةِ ولا وظيفةٌ أُعطِيَتْ بِالمحسوبيّاتِ؛ فنحنُ نِسْوَةٌ مُؤمناتٌ باللهِ، ومُلْتَزِماتٌ بفَرائِضِهِ وسائراتٌ على خُطواتِ جدّاتنا وأمّهاتِنا وشقيقاتِنا ورؤوسُنا مرفوعةٌ. ولسْنَ مُعَقّداتٌ ولا أَماتٌ لغيرِ اللهِ. سيئةُ الاسمِ والحضورِ، باختصارٍ أغلقي فَمَّكِ وافتحي قَلْبَكِ وآمِني والتزمي تَشْعرينَ بثِقةٍ أكثر ولا تكونين مثالًا للضّياعِ والهزْءِ والسّخريةِ. يا ابنةَ الإعلامِ المُمَنْهَجِ ضدَ العَربِ والمُسْلمينَ على السّواءِ. من فوضى الثّقافةِ وطرائقِ العَيْشِ في بلدي.

ومن سخرية الصّدفِ أن تَجْتَمِعَ اثنتان تَحْتَ سَقْفٍ واحدٍ وهما زميلتانِ: خرقاءٌ كسولةٌ تعملُ وراءَ مَكْتَبٍ وتقَعُ على عاتِقِها مسؤوليةٌ مهمّة والثّانيةُ حاجِبَةٌ تَمْسَحُ لها غُبارَ المَكْتَبِ. فيا لِسُخْرِيةِ القَدَرِ!

بابتسامةٍ هازِئَةٍ، اسْتَقْبَلَتْ **الأستاذةُ أمنيّةُ** زميلتَها السّابقةَ التّي كانَت مُتَفَوِّقةً في الدّراسةِ وكانَتْ الأولى على الصّفِ وعلى دُفْعَتِها. وبِرزانَةٍ، أجَابَتْ هناء:

- التقينا بعد كلّ هذه السّنوات! وإنْ كُنْتِ تسألين لِمَ أعملْ هنا بالتّنظيفِ ومعي شهادةٌ؟ فالجوابُ هو أنّي لا اهتمّ بنوع العملِ، يكفيني أنّي أعملُ وأكفي نفْسي ذلّ السّؤال.
- هل تذكرين كَمْ سَخِرْتِ مني ومِنْ قَصاصاتي التّي كُنْتُ ابْتَلَى بها؟
- هههههه، إذن سَتَنْتَقمين؟ إياك! صحيحٌ أنّكِ مدعومةٌ وبفضلِ هذه المعرفة، أصبحْتِ مديرةً ولكنّ دعمي أقوى، فمَنْ يَسْنُدْني لا يعفو عن ظالِمٍ!
- لا، لا ياصديقتي. وهل أنا صغيرةٌ لِدرجةِ أن أَنْتَقِمَ لذاتي من طفلةٍ مَغرورةٍ بتَفَوّقِها، ومُعْتَدّةٍ بنَجاحِها؟! فالنّجاحُ والفَشَلُ هما ابنا هذه اللّحظةِ!
- لا يا أمنية! العملُ ليسَ مِعْيارًا وإن كانَتْ الفوضى في بلادي تُزّعْزعِ مُرْكَزَ الكفاءاتِ وتُخْرِبُ المَواضِعَ وتَقْلُبُ المَواقِفَ. كَوْني عاملةُ تَنْظيفٍ لا يَهْدِرُ ذلك من إنسانيتي وأنا مُتصَالِحةٌ مع نفسي، مثلي مثلُ الكثيرين مِمَنْ يَحْمِلون شهاداتٍ ويَعْمَلون بِمِهَنٍ مُتَواضعةٍ. هناك مَنْ يَبيعُ مُتَجَوِّلًا وهناك السّائقُ والخادمُ؛ و نحن كلّنا مُجاهدون:

جِهْدُنا مُضاعَفٌ؛ فأنتم السّارقونَ أَمْكِنةَ المُسْتَحِقين. أنتِ مَنْ يَجِبُ أن تَخْجلي!

- أَوَ لا تخافي من خسرانِكِ حتّى لوظيفتِكِ المُتواضِعةِ؟!
- لا أَخَافُكِ ولا أخشى حتّى فُقْدانَها؛ فإذا اقْتَضَى الأمرُ، يا مديرة، أتْرُكُها لكِ تَشْتَغلين بالمركزيْن. عُذرًا وليس منكِ، عُذرًا مني لأنّي اعْتَقَدْتُ للحظةٍ ما أنّ الصّغيرةَ أَصْبَحَتْ كبيرةً، أقلُّه بالأيام، والسّلام!.

أَخُطُّ على صَفْحَتي أبجديةً فينيقيّةً وكلماتٍ عربيّةٍ.
هُنا أَتَنَفَسُ عَبَقَ لُغَتي
ويَتَهَجّدُ قلمي فوقَ سطورٍ عصماء.
وَحْدَهُ المَدادُ الأزرقُ يَرْفُدُ ينابيعَ خيالي وإبداعي.

غزارةُ بِوَجَلٍ وخَجَلٍ، فصاحةٌ؛ قَلَمي لا يهابُ النّضْبَ ولايخْشى الرّكودَ دائمًا تتزاحمُ كُنوزي لتزين عقولَ ناشئةٍ ولِتُجَمّلَ أفكارًا شاردةً.

لا أدّعي ولا أُجَامِلُ ولكنّي مَلِكةُ الخاطِرةِ وبلا مُنازِعٍ أَصُبُّ جامَ قُوتي فوقَ إلحاحٍ لاهِبٍ، يُشْعِلُ رمادَ السّنينِ ويَبْعَثُ الأمَلَ ويروي الحنينَ. يا كلّ الشّعراءِ من أزمنةِ الألفِ إلى ما قبلِ الياءِ، لِنتلاقَ في سوقِ عُكاظَ، نَتَبارَزْ بأَقْلامِنا ونَتَبَاهى بصهيلِ قَصائدِنا مُعَلّقاتٍ ودواوين وكلّها غَزَلٌ وحبٌّ ومَديحٌ.

عافَتْ النّفْسُ السّأمَ والضّجرَ والأنينَ ومالَتْ إلى السّلوى والفَرَحِ والوتينِ. خُذْ عنكَ الحُبّ وانثُرْه في وجوهِ المُحِبّينَ. آدمُ غَوَتْهُ حواءُ وتَلَذّذَ بالتّفاحةِ وهَبَطْنا معه إلى الحَضيضِ ريثما يُقْضَى الأمرُ ونَرْجِعُ إلى مساكنِنا في جناتِ النّعيمِ.

امهلوني كي أَقِفَ فوقَ منابرِ الأُدَباءِ؛ أَتْلو عليكم رسالاتِ العِشْقِ ومخطوطاتِ الهَوَى وما بين الثّريا والثّرى وحكايا قلوبٍ وقِصَصِ أحلامٍ ورِواياتٍ وأُمْنياتٍ عساني أَبْلُغُ سِدْرةِ الشّعْرِ وأُنَظّمُ بيتًا يَجْمَعُنا: أثاثاتُه حروفٌ وناسُه أُدَباءُ.

في دُواتي قلائدُ لكَ ولها أوسمةٌ لكلّ الأحبةِ. تَلْزَمُني سنواتٌ ضوئيّةٌ كي أُكْمِلَ تِعْدادَ أسماءَكم ولكن لكلٍّ منكم باقاتُ زَهْرٍ ربيعيٍّ؛ شذاه يَأْخُذُكم إلى النّجومِ وجمالُه يُحَلّقُ بكم فوقَ المدائنِ والدّروبِ.

عالي الجبينِ، ناصعُ النّاصيةِ
عميقُ القَلْبِ، جميلُ العَيْنَيْنِ
رائعُ المَبْسَمِ وحادقُ النّظرِ
عَطِرُ الحَضورَ رذاذُه أبيضُ
يداهُ مبسوطتان، كريمٌ
يَدُبُّ فوقَ الأَرْضِ بجَناحيْهِ
ويُحَلّقُ في الفضاءاتِ
ناشرًا زغاريدَ الوِدّ
وتغاريدَ الحُبِّ
وأبجديةَ السّنا....
هوَ روحُ القصيدةِ
ومرايا القِرْطاسِ
ومحابرُ القَلَمِ
هو المُنْطَلِقُ في الحياةِ
بلا تَكَلُّفٍ ولا وَجَلٍ
ولا تَصَنُّعٍ أو خَجَلٍ
بِجُرْأَةٍ وواقعيةٍ
وبِخيالٍ جارِفٍ
وحَفْلِ تَكْريمٍ دائمٍ
لبناتِ أفكارٍ لاتنام

ولا تَسْكُنُ ولا تَهْدَأُ

نَهَضْتُ مع الفَجْرِ وفي حُضْني رِزْمَةٌ من حروفٍ تُشْبِهُ عصافيرَ السّنونو تَبغِي التّحليقَ مع خُيوطِ الشّمسِ فترتاحُ عليها لتكونَ كلماتٍ تُزَيّنُ صباحي وتُضيئهُ وتَجْعَلْه جميلًا. لا أَفْقَهُ ألسنةَ المُدّعين والمُدافعين عن المرأةِ بحسب عقليتِهم؛ أي ضِدَّ أحكامِ الشّرعِ والدّينِ، آخذينَ من الحُريّاتِ الشّخصيّةِ مَطِيّةً لِتُرْهِقَ أنفاسَ المجتمعِ. وكلّ مشاكلِنا بحسبِ هؤلاءِ يعودُ في الأساسِ لحجابٍ أو للزّواج المُبْكِرِ، أو الأحوالِ الشّرعيّةِ ويَترْجِمُ قوانينَ ليتَنا حافظْنا عليها وسِرْنا وِفْقَ قواعدِها. ويديرون ظهورَهم ويُسْدِلون السّتائرَ على المشاكلِ الحقيقيّةِ؛ فالنّفسُ البشريّةُ تسوءُ وتسودُ في زمنٍ اعتلى الإنسانُ فيه المنابرَ وأَدْلى بالرّأي و وُسِم بالاعتدادِ بالنّفسِ وفوضَى التّقنياتِ وزحمةِ العَولمةِ. المشكلةُ تَكْمُنُ في النّفوسِ، لِذلك لابُدَّ من الإشهارِ بها كي نُصَوِّبَ العُنْفَ ضدَ المرأةِ وكذلك العُنْفَ ضدَ الإنسانِ ككلٍّ.

التّربيةُ والثّقافةُ والعِلْمُ والمناهِجُ الخَفيةُ والظّاهرةُ هي المسؤولةُ عن كلّ مصائبِنا.

وماعلينا الّا الرّؤيةُ السّليمةُ والرّؤيا الواقعيةُ والتّسلّحُ بالحَواسِ والبصيرةِ والقلبِ وكلّ قوةٍ إلى أن نَقْرَأَ النّصوصَ وتفاسيرَها ونَفْقَهَها ونقتديَ بها. وماعدا ذلك فالحريةُ لا تَمْلِكُ إلّا وجهًا واحدًا ولا يُمْكِنُ أن أكونَ حُرةً في أن أؤيّدَ الزّواجَ المُبْكِرَ ولسْتُ حُرةً بأن أُبْدِيَ رأيًا مُعارِضًا للعُنْفِ وللتّنمّرِ وللكراهيةِ. وكيف أكونُ حُرةً وأنا ألومُ طرفًا من أطرافِ الخُصومةِ؛ إذ لا نزاعًا إلّا بين اثنيْن أو أكثر. والانحيازُ بحدِّ ذاتِهِ يُفْقِدُنا التّوازنَ والإيجابيةِ.

من الطّبيعيّ أنّنا كمجتمعٍ شرقيٍّ تَحْكُمُه التّقاليدُ والمظاهرُ؛ غارقون بشِعاراتٍ شتّى منها المدنيّة والمظلوميّةُ وشتانَ بين ما نُريدُه وبين ما نَفْعَلُه. تتضاربُ الأفعالُ بالنّياتِ وتَتَشَوّهُ الأحداثُ من أبواقِ الشّرِ من إعلامٍ ومحسوبينَ على العِلْمِ والفَهْمِ والتّنوّرِ.

ياسيدات وياسادة المشاكلُ التّي تعاني منهاالمرأةُ هي أولًا وأخيرًا المِحْوَرُ الذّي يُبْنى عليه وتدورُ من حولِه الآراءُ وعليها تَقَعُ المسؤوليةُ إذا ما وَجَدْنا الدّوائرَ التّي تَفْتَعِلُها وتارةً تسيرُ معها وتاراتٍ تُخالِفُها بِحَسَبِ الأهواءِ والمزاجِ وموازينِ المادةِ والصُّوَرِ والزّخْرَفاتِ.

التّي تَهُزُّ السّريرَ بيمينِها تَهُزُّ العَالَمَ بِيسارِها، نعم ولكنّها هَزَّتْ العالَمَ بكلِّ الجِهاتِ. حتّى أنّها ارْتَضَتْ أن تكونَ سُلْعَةً ومادةً ولَوْحةً وشكلًا خاليًا من المَضْمونِ؛ ولامجالَ للتّعميمِ ولكن غالبيتُهن كذلك.

ها أنا أُبْحِرُ في مداميكِ حَرْفِكِ البّهيّ وأُلَوّنُ سجاياه الحميدةَ بألوانِ الشّفَقِ وأُعَطّرُهُ برَذاذِ الغَسَقِ وأَتلوهُ في مُجَمَّعاتٍ واجتماعاتٍ أوحتّى في مناسباتٍ خاصةٍ وعامّةٍ فقط من أَجْلِ نفسٍ كَرَّمَتْني فأَبُرُّها ولو بِنَشْرِ الأفكارِ والعِبَرِ والعِباراتِ.

منذُ حداثتي وأنتِ رفيقةُ دَرْبي ومُوَجّهَتي ومُربيتي وصَديقَتي والتّي أَقْضي معها أروعَ الأوقاتِ.

اليومُ فراقُكِ صَعْبٌ ولكن أَثَرُكِ فيّ باقٍ. على دروبِكِ سأَسيرُ ووَفِقَ مَنْهَجِكِ سأُكْمِلُ المسيرَ وكما عَرَفْتِني مرايًا لِلحبّ ولِلخيرِ أنا سأبقى هكذا ما حَييتُ.

لؤلؤتُكِ صارَتْ لوليا الكبيرةَ يا أمّي، مَكنونةً ومنثورةً تحيا صعوباتِ أترابِها، وتأْخُذُ بأيديهِن لِتُرْشِدَهُن وتَصْرِفَ قُدُراتِها كي تُصْلِحَ ذاتَ البَيْنِ أوتُصَوّبَ علاقةً أوتَحْضُنَ رضيعةً أوتُعَلِّمَ صَبِيَةً مِهْنَةً تُحِبُّها.

أمّاعن حياتي فسوفَ أَنْتَظِرُ قَدَري لقد أَنْفَقْتُ ما وَسِعَ الجَيْبُ واختَزَنَ من همومٍ وعذاباتٍ ويأسٍ.

لم أَعُدْ أُرَكِّزُ بحماقةٍ على مشاكلي وصِراعاتي، لقدْ تَوَجّهْتُ إلى أوراقِكِ الخَريفيّةِ أَجْمَعُها وأصْنَعُ منها عقودًا ومواقفَ وحِكَمًا ورَصانةً بابتسامةٍ وهديةٍ وكلمةٍ طَيّبةٍ.

ارقدِي بسَلامٍ ياحبيبةً؛ فالحياةُ دونكِ جَفاءٌ. ولكنّها مشيئةُ اللهِ وإرادتِهِ وكم أتمنى أن أكونَ

ابنتَكِ الصّالحةَ الحقيقيَّةَ وها أنا أُحاولُ...

لَكِ اللّؤلؤُ المَنثورُ ومِنكِ وكلّي أَمَلٌ أن يضيءَ أيامَ كلِّ المقهوراتِ بقَناديلِ الرّضا والتّسليمِ ومقاومةِ كلّ شنيعٍ وقبيحٍ. كما أهْدَيْتِني الرّوائعَ والكنوزَ، سوفَ أَصْعَدُ بها إليكِ برسالةٍ عساها تُبيِّنُ لكِ مِقْدارَ عُرفاني بجميلِكِ، يا جميلةَ الحضورِ والمُذكّراتِ واللّؤلؤِ المنثورِ!...

لستُ ضليعةً بالرّواياتِ ولا القِصصِ ولا حتّى بالأشعارِ، أنتِ تَعْلمينَ أنّي أدورُ في فَلَكِ النّثرِ وأعتلي مكانةً مَرموقةً في إظهارِ خاطرتي وإبدائي لسَريرتي، لكِ ومن خلالِكِ، لِلنساءِ أجمع. فأنتِ، يا سيدتي، تَجْمَعين بناظري نساءَ العالمينَ الصّالحاتِ القانتاتِ، العابداتِ الصّابراتِ، والمُحارِباتِ لِلضّلالِ والفَسادِ والرّمزَ للحياةِ والمثالِ لمريمَ وزوجاتِ النّبي عليه الصّلاةُ والسّلامُ، أمّهاتنا، ولكلّ النّسوةِ الواردة أسماؤهن في القرآنِ الكريم. ولا أُغالي يا بانيةَ، في ذاتي لغةٌ إذا ما وَقَعَتْ على الآذانِ تُمْطِرُ فصاحةً وبَلاغةً وحُسنَ مآبٍ.

رسالتي إليكِ أمّي أنّك أنتِ لي الحياةِ ولو كنْتِ في عِدادِ الموتى...

أُهْديكِ كلماتٍ تُشْبِهُكِ، تَرْسُمُ مساراتِ عَبْقَريتِكِ وتَعْزِفُ على أوتارِ القَلبِ والوُجْدانِ. هنا لن أكونَ المدافعةَ عن تهمةِ أنّي من النّساءِ وبالمُوازاةِ لن أُحارِبَ كلَّ ابنِ آدَمَ، مهما اخْتَلَفْتُ مع مَفاهيمِهِ وإدراكِهِ وذكوريَتِهِ.

البدايةُ في كَونِ الحياةِ عظيمةٌ وهِبةٌ كريمةٌ إذا ما حافظنا عليها وعِشْنا لحظاتِنا برضًا وبناءً عليه نكونُ قد وَفَيّنا كلّيتَها وحقّقْنا الغاياتِ وسِرْنا الدّروبَ وتَرَكْنا الآثاراتِ.

ولا يَخْتَلِفُ جاهلٌ ولا مُتعلّمٌ ولا مُهْتَمٌّ ولا غيرُ آبِهٍ بكلّ ما هو واردٌ وصادرٌ: بأنّ بناءَ الإنسانِ مهمةٌ تُصَعِّبُها التّفاهاتُ وتُعَرْقِلُ عُلُوَّها الثّرثراتُ ولا شكّ أنّ الأُسُسَ المتينةَ لا تكونُ إلّا بثَباتِ عُقولٍ آمَنَتْ بقُدرةِ اللهِ وعَمِلَتْ وتَوَكَّلَتْ ولم تَتَواكَلْ. (**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**)[3] آيةٌ فيها كلُّ معاني البنيانِ.

صحيحٌ أنّ دراستي الميدانيةَ كانَتْ حولَ المرأةِ ولكنّ الوجودَ برُمّتِه يتناوبُ بين المؤنثِ والمذكرِ، والحياةُ على الأرضِ لحنٌ خالد يتشارَكُ في عزْفِهِ النّساءُ

[3] سورة التّوبة، الآية ١٠٥.

كما الرّجالُ، ولنا من قصةِ سيّدنا آدم وأمّنا حواءَ عليهما السّلامُ خيرَ أنموذجٍ، حين نَزَلا من الجنةِ رحمةً من ربِكَ، وهَبِطا إلى الأرضِ ومعهما قوةُ الحياةِ والوِلادةِ والصّراعاتِ والتّكاثُرِ والإنجابِ.

وفي كلّ حدثٍ خطأٌ وصوابٌ، أمثولةٌ وآياتٌ...

فكما عَلّمَ الغُرابُ ابنَ آدمٍ كيف يواري سَوْءةَ أخيه أبكاه وجعله نادماً على فِعْلَتِهِ، علّمَنا كيف نَدْفُنُ الأخطاءَ ونُتابعُ الحياةَ مُصَحّحينَ لِمسيرِها وحامِلينَ ما تَيَسَّرَ من عاطفةٍ آدميّةٍ تكونُ لنا الدِّرْعُ والأمانُ؛ فلا البكاءُ يُعيدُ مَيْتًا ولا الحُزْنُ ينجي من مداميكِ الإلهامِ...

تاريخٌ يمضي ويزيحُ مُلوكًا ويُهْدِمُ ضِيَعًا ويَبْني مُدُنًا ونَصِلُ اليومَ إلى زَمَنٍ أقلُ ما يتَصّفُ به إنسانُه بالضّائعِ الحَيْرانِ إنْ لم نَقُلْ أنّه في غفلةٍ والعياذُ بالله.

والمرأةُ هي المُحَرّكُ لكلّ المُوَلّداتِ في سُنَنِ الأرضِ من كلِّ موقعٍ أَتَتْ: فهي الأمّ والمُربيّة والمُلْهِمَة والمُصَوِّبة والمُزَيّنة والمُرَطّبة لكلّ الأجواءِ.

لن أُعيرَ اهتمامي لكلّ مَنْ شَنّ ويَشُنُّ عليّ حَرْبًا عشوائيّةً لا تمتُّ للمنطْقِ بصلةٍ، وسأقولُ بأعلى الصّوت دون خوْفٍ أو جُبْنٍ أنّ عَمَلَ المرأةِ خارجَ مَنْزِلِها أَفْقَدَ مُجتمعاتِنا الكثيرَ من الأبناءِ القادرين على مُواجهةِ الصِّعابِ وإزالةِ الأشواكِ وإكمالِ الحَلقاتِ وتعزيزِ نظامَ الحياةِ الحقيقيّة. والدّليلُ واضحٌ أمراضٌ وعِلَلٌ تُتْخِمُ مُجتمعاتِنا وتُضْعِفُنا وتَأْخُذُنا إلى الهاويةِ إلّا مَنْ رَحِمَ الله.

الفصل التاسع

وحدُها الأمّ تعْدِلُ كفةَ الميزانِ. لا ينفعني منها زِيٌّ ولا يعنيني جسدٌ عارٌ ولا حتّى مكانٍ راقٍ وذلك وبكلّ وضوحٍ وصراحةٍ، وجودُ الأمِّ في بيتِها لا ينتقصُ من قيمةِ بشريّتِها ولا من روعةِ وُجودِها؛ فكلّ عِناقٍ وتوجيهٍ وتعليمٍ وتحفيزٍ يُطْلُقُ منها إنسانًا قَوِيًّا، يُتابعُ ويبني ويَعْمَلُ ويجني ولا يكون على المُجْتَمَعِ عالةً وحالةً. إذا كانَتْ رئيسةَ بلادٍ ولا تَصْلُحُ لإدارةِ عائلتها فما بالي بمركزِها وما همّي بمنصبِها. وإذا كانت ملكةَ جمالٍ كما يروّجون وتعيشُ بينها وبينَ نفسِها قباحةً وشناعةً وسوءَ أخلاقٍ فما يفيدُني سحرِها الخارجيّ وداخلُها مظلمٌ ظلام ليلٍ في موسمِ الشّتاء القارسِ.

ابتَعَدْنا عن الإيمانِ وهَزُلَتْ أفكارُنا حتّى باتَتْ الحلولُ معدومةً والعقولُ عقيمةً عاجزةً عن الإنجابِ.

نريدُ امرأةً أولويتُها بناءُ الإنسانِ بدءًا بوليدِها وصولًا لكافةِ الأبناءِ؛ فالحياةُ الدّنيا لا تعدو كونها أكثر من كلماتٍ تُرْسَمُ ولها معانٍ تَعْظُمُ وتسمو بسموِّ كاتِبِها وعَظَمَتِهِ وقُدْرَتِهِ على استيعابِ مَهامِهِ وعلى القيامِ بواجباتِه. الأمّومةُ ليسَتْ وظيفةً ولكنّها رسالةٌ والمرأةُ ليسَتْ سلعةً بل هي إنسانٌ ومع كلّ هذه الفوضى سوف تقومُ القيامةُ قبلَ موْعِدِها وبأفعالِ كلّ مَنْ سَوّلَتْ له نفسُه الاعتقادَ أنّه إلهٌ.

اللهُ شَرَّعَ لنا الدّينَ لِنحيا وكلّ ما تفعلونهُ يُؤَدّي إلى الهَلاكِ وما يُحيطُنا يُخيفُ ويُزَعْزِعُ الثّوابت ويُضْعِفُ الإيمانَ. الضّربُ والصّراخُ وتصويبُ الخَطَأ كان أسلوبًا في التّربيةِ واليومُ تَغَيّرَ وصار الكَذِبُ والنّفاقُ والضّحكُ على الأبناءِ وتسهيلُ الصّعابِ، ولو بالزّيفِ، طارئٌ وحاصلٌ حتى يَكْبُرَ الإنسانُ ويَفْشَلَ ولو كان في قِمةِ النّجاحِ وذلك لاختلالِ الموازينِ في الذّاتِ الإنسانيّةِ؛ فما يَسْتقيهِ الطّفلُ من الخادمات لن تَمْحُوَه هديةً ولن يَنْتَزِعَهُ احتفالٌ يلزمُنا صحوةٌ وقبلُها ثورةٌ تُشعِلُ اليَباسَ ونَسْتَرِدُّ بعدَها التّربةَ الجَيّدةَ للإنباتِ.

المرأةُ إذا ما أهينت تَكْرِمُ الأمّةُ وكافةُ المجتمعات وإذا ما كُرِّمَتْ على سبيلِ ما يحصلُ من حولنا تكون إهانةً حتّى للحيوانات. شَوّهْنا الجمالَ، قَبّحْنا الخيرَ، أَحَطْنا كلَّ منفعةٍ بالشّواذِ الحَرامِ الذّي صالَ وجالَ في الوُجدانِ قبلَ الأعمالِ.

نرى السّفورَ ونعيشُه ونرى التّسَتّرَ ونَرْفُضُهُ ونُجادِلُ شرائعَ سماويّةً ونَلْهَثُ وراءَ مُزيلاتٍ دُنيويّةٍ.

تكاد لا تخلو غرفةُ امرأةٍ من كلّ الأعمارِ من مُبيحاتٍ وعطوراتٍ وأشياءَ للطّرقاتِ، لن أخوضَ بصِحّتِها هي لِلمنزلِ والبيتِ وكلّ مَنْ يراها لا حقّ لَه فيها؛ مع ملاحظتي المتواضعةِ: الجمالُ لا يكونَ بالصّبغاتِ والمجوهراتِ ولا بالألوانِ. جمالُ المرأةِ في قلبِها ورصانتِها وشخصيتِها وإنتاجاتِها وأنوثتِها أولًا وأخيرًا أدواتُ الزّينةِ لا تُذْهِبُ عيبًا ولا تُغَيّرُ حقيقةً بل تَخربُ وتُشوّهُ وتَكذِبُ وتَخْدَعُ. والأزياءُ كلّها تنحو صوبَ العُري والخروجِ عن نِطاقِ الجَمالِ.

صارَتْ الغَرابةُ والاعتلاءُ على منابرِ الفَسادِ وإظهارِ المرأةِ والرّجلِ كأنّهما صورٌ خارجةٌ من عقلِ شيطانٍ يُسَوّدُ البياضَ ويُبْعِدُ الحِشْمَةَ ويُمْعِنُ التّمزيقَ بالسّتراتِ. ولكي أكونَ مُنْصِفَةً لماذا لا نجعلْ من الزّينةِ والأزياءِ عالميْن إيجابييْن كأن تكون للمعالجةِ وتكيّفًا مع حرارةِ الطّبيعةِ وعملًا بتحسينِ المعيشةِ واجتنابًا لكلّ الأرذالِ والدّنسِ وتقويمًا لكلّ اعوجاجٍ. ستبقى الحياةُ نتيجةَ تفاعلِ ذكرٍ مع أنثى وتوحّدهما من أجلِ بناءِ الأرضِ والسّموِ بالإنسانِ. وإذا ما رَكّزْنا على دورِ المرأةِ، فلأنّها المِحْوَرُ ولأنّها مصنعُ الرّجالِ والنّساءِ على حدٍّ سواء.

مثل نرجسةٍ صغيرةٍ نَبَتَتْ فوقَ صخرةٍ مُغَطاةٍ بالثّلوجِ البيضاءِ، وُلِدْتُ وعِشْتُ وكَافَحْتُ ونَاضَلْتُ. أنا المرأةُ الثّائرةُ الرّافضةُ لكلّ ما يَنْتَقِصُ من قيمةِ الإنسانِ مهما عَمِيَتْ حواسُ النّاسِ، ولو بَقيتُ وحْدي أُصارِعُ أفكارًا من صنيعِ الأعداءِ.

مرجعي نساءٌ صالحاتٌ ورجالٌ أنبياءُ وشريعةٌ لو طُبِقَّتْ لكنّا نحيا جنةً على الأرضِ قبلَ جناتِ النّعيمِ في السّماءِ. نعم، الدّينُ القويمُ أَنْصَفَ النّساءَ وزادَهُن إكرامًا وعزّةً وبكلّ المقاييسِ والأوزانِ والمعاييرِ والأحاسيسِ والأفعالِ.

لا تعنيني التّفسيراتُ التّي لا تُشْبِهُ مَوْرِدَها ولا التّطبيقاتُ التّي ظلمتَها. فلنرفعِ السّوداويةَ ونُحَدّقْ بكلّ آياتِ القُرآنِ، لنبدأْ بسورة النّساءِ: يا نساءَ الأرضِ اقرأْنَها، تَدَبّرْنَ معانيَها واعْتَمِدْنّ على حَدْسِكُن بلا زورٍ أوبهتانٍ وسوفَ تَصِلْنَ

إلى كثيرٍ من إزالاتٍ للشّبهاتِ ولِلمنابِعِ التّي يَجِبُ أن نوردَ منها القوتَ والماءَ للرّوحِ والجَسَدِ وللإنسانِ والحياةِ.
وكلماتُكِ المأثورةُ لا تزالُ أمامَ ناظري وفي مسمعي:" لا تَكُنْ طُفَيْليًّا ولا تجعلْ من نَفْسِكَ حُطامًا
ودعِ القَلبَ يقودُ وعقلُكَ المَكابِحَ؛ فالدّنيا فيها من المُشْتَهَياتِ ما لا يُعَدُّ ويَكْثُرُ وكلّها مفاسدُ تَحْرِقُ الأنفاسَ وتُذْهِبُ الصّلاحَ وتَرْفَعُ المَهانةَ وتُنْزِلُ المُكَرّماتِ.
دعْكَ منها واتّكِلْ على اللهِ وركّزْ خطواتِكَ في دُروبِ الفَلاحِ. كلّ شيءٍ بقَدَرٍ والقضاءُ محتومٌ والنّصيبُ محسومٌ؛ فعلامَ يا إنسانُ تَلْهَثُ؟!
وكلامي هذا لا يعني أن تَموتَ وأن تبقى طيلةَ العمرِ راكِعًا ساجِدًا؛ فالأعمالُ حسناتٌ والكلماتُ صَدَقاتٌ والابتساماتُ والسّلامُ والمودةُ، كلّها من الفرائضِ.
امسحْ حزنَ أخيكَ وخُذْ بيديْهِ وقّدّمِ الهدايا لِلأهلِ والجيرانِ وعليكَ بالوَرْدِ؛ فالوردُ صندوقُ العجائبِ، يَحْمِلُ رسالاتٍ جَمّةً لِلحبّ والشّكرِوالعُرْفانِ.
وكذلك تغاضَ عن كلّ المساوئ؛ فأنتَ لم تُخْلَقْ لِتُحاسِبَ وإنّما لِتُحَاسَبُ. وعليكَ بالجودِ ولو كانَ قليلًا، ابْنِ فوقَهُ ورافِقِ الكريمِ وأعِنِ البخيلَ و عن البُخْلِ ابْتَعِدْ.
واذكُرْ دائمًا أنّكَ من طينٍ وأنّ قَلبَكَ يجبُ أن يحنوَ على العصفورِ وعلى الحيّ الصّغيرِ والكبيرِ والباقياتُ الصّالحاتُ هنّ لكَ حُرّاسٌ وجُنْدٌ فلا تتكاسَلْ وبها تّهَجّدْ.
ومن محبتي كَتَبْتُ وأَوْجَزْتُ وليس كلّ ما يهدي للأحسنِ مادةٌ للتّعلّمِ بل النّصيحةُ مجلّلةٌ بالمودةِ وراجيةٌ للرّحمةِ تكون بنوقِ الأرضِ وغزلانِها وحتّى بجيادِها يا بشر.
وفي النّهايةِ، أقول قوِّ إيمانَكَ وكُنْ على يقينٍ أنّ مَنْ خَلَقَكَ بِكَ أَرحمُ من العِزِّ والجاهِ والمالِ والولدِ.
وسلامٌ على مَنْ اتّبَعَ هديَ النّبي وعاشَ حياتَه بنورِ القرآنِ ورضا الرّحمنِ وكانَ قَويًّا فالمؤمنُ القويُّ خيرٌ من المُؤْمِنِ الضّعيفِ.
البيئةُ الحاضِنةُ للطّفيْليّاتِ بيئةٌ تَخْتَصُّ بالرّطوبةِ والماءِ الرّاكِدِ وفي أمكنةٍ بعيدةً عن الأنوارِ والأضواءِ.

ومَنْ يرتضي أن يكونَ من صنفِّ الطُّفَيْليّاتِ هو شِبْهُ إنسانٍ ولأنّه يتنازلُ عن ثلثَيْ واجباتِهِ ويَتَحوّلُ إلى مخلوقٍ لايشعرُ إلاّ بالخوفِ ولا يُمَيِّزُ بينَ الطّيبِ والخَبيثِ، الكلّ عنده سَواء، فهو فقط يدورُ في فَلَكِ الذّاتِ ويُثْبِتُ الوجودَ بالأنانيةِ وبالأحرى أنا الصّحُ وأنا الأقوى وأنا أولًا أحدٌ يطيحُ بالمبادىءِ ويصيحُ للتّفاهاتِ ويُصِرُّ على إيذاءِ النّاسِ ويُمْعِنُ في تخريبِ العلاقاتِ وتحريمِ كلّ ما يُعارِضُ ما يعتقدُه مَصْلَحَتَه ورغباتِه وأهواءه. ويَجْهَرُ بالعَداءِ ويُشْهِرُ الكراهيةَ، ويَتَسَلّحُ بالحسدِ والحِقْدِ ولا يتوانَى عن الغيرةِ والجُورِ والظّلمِ والكِذْبُ دربُه الدّائمُ والاحتيالُ سياستُه وكلُّ سوادٍ رفيقُهُ والشّمسُ عَدُوّهُ والنّورُ لا يَعْنيه، وليسَ في قاموسِهِ عَرَقٌ أو جُهْدٌ ولا تَعَبٌ، يَطْلُبُ دائمًا ما ليس له، يتمنى مصيرَ غيرِه وعينُه على أرزاقِ الآخرين. شكاوًى ودمعاتٌ وآهاتٌ كلّها تطفو فيهِ ولا أساسَ لها من الحقيقةِ ولا تَمّتُ لِلواقعِ بِصِلةٍ.

طُفَيّلياتٌ بيننا تتكَاثَرُ وتَمْلأُ جَنَبَاتِ أيامِنا، وبلا مِنةً أو ثَرْثرةً، وبلا نِقاشٍ هو ذاك الإنسانُ الضّائعُ، باختصارٍ هو المَيّتُ على قيدِ الحياةِ.

فالحياةُ رائعةٌ إذا ما كنا أناملَ وعقولًا وقلوبًا وحواسًا وإحساسًا ولا تَمُّتُّ لِلرّكودِ ولا لِلعيشِ مِن وعلى حِسابِ الآخرِ في الوقتِ والرّاحةِ والزّادِ والمالِ.

لا تَكُنْ طُفَيْليًّا ولا تَدّعِ شرفَ الذّكاءِ؛ فالغباءُ كلُّ الغباءِ ألّا تَنْعَمَ بما أهداكَ إياه الرّحمنُ وخاصةً القدرةَ على العملِ، ونزعِ فتيلِ غَضَبٍ، على منحِ ولدٍ والرّضا بالأحوالِ وتركِكَ لِلعيونِ التّي لا ترى إلّا ما هو سيءٌ وصمِّ الآذانِ عن كلّ رديءٍ وإيقافِ نَبَضاتِ القلوبِ التّي تَخْفُقُ لغيرِ اللهِ وحَرْقِ الأفكارِ التّي تُشْعِلُ نيرانَ التّفرقةِ والتّشرْذمِ والانقساماتِ للوطنِ الكبيرِ وللشّعبِ العظيمِ.

هويةٌ من وَرَقٍ حريريٍّ، ودستورٌ بخطوطٍ لُؤلؤيّةٍ وعَلَمٌ يُرَفْرِفُ في حُلمِ الطّفولةِ، ونَسَماتٌ تَلْفَحُ خَيالاتِ البُطولةِ، ومطرٌ يروي تُرْبَةَ النّفوسِ الظّمآنةِ. هي أضعفُ خلقِ اللهِ كلّهم، هي الأمّ أينما وُجِدَتْ، وفي أيِّ زمانٍ، هي التّي تُكَبّر ومن أحشائِها يولَدُ الرّجالُ والنّساءُ. وهي المُعَلّمةُ التّي تُدَرّسُ الأجيالَ، وهي التّي تَهْتَمُ بردائي، وتطهو طعامي، وتَمْسَحُ دمعاتي ساعةَ الأحزانِ، وتَرْسُمُ ابتساماتي، هي التّي تَكْتُبُني سُطورًا في كِتابِ الحياةِ، وهي التّي تَقْرَأُني لِتَكْتَشِفَ ما يجولُ في أَرْوِقةِ ذاتي، تُصَوّبُ أفكاري الشّريدةَ، وتُحَفّزُ منها

الرّشيدةَ، هي آيةٌ مُقَدّسةٌ وُجِبَ الوُضوءُ قبل ذِكرِها ولمسِها وعِناقِها، واليومُ ياوطني الرّاحلَ مازلتُ أُحِبُّكَ، وأَنْشُدُكَ في الصّباحِ وقبلَ النّومِ، وأكثرُ الأعمالِ التّي أُحبُّها الوقوفُ أمامَ قَبْرِكِ والحديثِ معكِ، اليومُ أنا فخورةٌ بانتمائي إليكِ أكثر وأعْتَزُّ بكِ وباسمِكِ المنقوشِ في أعماقِ وِجداني وفي عقلي وفوقَ شِغافِ قلبي وعلى جبيني. وهل أجملُ من اقتراني بالفَرحِ ياسعادتي، وأسرُّ لِترابِ مثواكِ أنّي أُحاولُ أن أكونَ مُمَيّزةً بين أترابي وكما عهدْتِني. أحبُّ إخوَتي وأخواتي ويزدادُ حبّي لهم وينمو مع ازديادِ عُمري وسِنيني، وطبعًا أَشْتَغِلُ على بعضِ ما كُنْتِ أنتِ تعملينَ عليْه ولكن أحدٌ لا يَمْلَأُ شغورَكِ؛ لا أنا ولا ملايينُ النّساءِ العظيماتِ. أنتِ تختصرينَ، يا والدَتي كلّ النّساءِ وتحضرين دومًا في نجاحاتي والتّي بتواضعِ أَضَعُها تَحْتَ قَدَمَيْكِ ولن أَخْجَلَ من القولِ أنّ حذاءَكِ تاجٌ فوقَ رأسي وأنّ أحلامَكِ وطموحَكِ ديْنٌ في رقبتي وأن ّوَصِيَتَكِ قانوني ومنهاجي، تلكَ الوصيةُ الصّامتةُ والتّي أَخْبَرَتْني بها عَيْنيكِ ساعةَ الوداعِ. أَمْلُكُ اليومَ من الجرأةِ كفايةً لأقولَ أنّك أنتِ كَوْنٌ فسيحٌ بكَواكِبِهِ المضيئةِ وشمسِهِ ونُجومِهِ وأَقْمارِهِ وأرضِهِ وهوائِهِ ومائِهِ وحدائِقِهِ وبساتينِه! كَوْني الفسيحُ الذّي أَبْدَعَ الخالِقُ فيه سَوْفَ تَبْقَيْنَ لي مَرْتَعًا وحُضْنًا وإلهامًا ودُواةً وقِرطاسًا وكُتُبًا على مرِّ الزّمانِ.

للأسطحِ ولِلشّرفاتِ والنّوافذِ والأبوابِ حِكاياتٌ ورِواياتٌ لِلهروبِ والاسترخاءِ والرّاحةِ بَعْدَ مشاكلٍ وتَعَبٍ وعناء. ومن ذكرياتِ الصّيفِ أيامَ زمانٍ، الاستلقاءُ على سَطحِ المنزلِ وَعَدُ الشُّهُبِ والنّجماتِ والاستمتاعِ بروعةِ وجمالِ السّماءِ كأنّها مرآةٌ كبيرةٌ لِلعظمةِ والإبداعِ. ومِن ذاكرةِ الشّتاءِ الوقوفُ خَلْفَ النّافذةِ ورميُّ النّظراتِ مع الأمطارِ ومراقبةُ النّاسِ وهم يَرْكُضونَ ويَتَدافَعونَ في الطّرقاتِ. ومِنْ حاضرةِ الخَريفِ الوُقوفُ على الشّرفةِ والاستماعُ إلى بُكاءِ العصافيرِ المغادرةِ والإنصاتُ إلى ضجيجِ الغَيْماتِ ومراقبةُ الكادحينَ وتَناقُلُ الهمومِ بين الجارات. ومن حاضرةِ الرّبيعِ الانطلاقُ وتشريعُ الأبوابِ، تضيقُ المنازلُ وحتّى الشّوارعُ وتَتَّسِعُ البراري للنّزهاتِ. وفي كلّ اللّحظاتِ، هناك أَمَلٌ ومَحَبةٌ وتفاؤلٌ ورَجاءٌ رُغمَ كيدِ الأحزانِ والأوجاعِ.

وكَمْ من زاهقةٍ قَضَتْ وكَمْ مِنْ مُتَمَرّدةٍ بَقِيَتْ وما زالَ الحِوارُ مُسْتَمِرًا بينَ البَقاءِ وبَينَ الرّحيلِ. وكلُّ نَفْسٍ عليها بالحياةِ وإلّا النّدم بعد فواتِ العَمْرِ وانقضاءِ الزّمانِ. وكأنّنا نهيمُ ونَسْرَحُ ونَتَزاحَمُ مُتَناسِينَ كلَّ القوانينِ والشّرائعِ والسُّنَنِ؛ فلاعقلٌ نُسَخّرُه ولا قلبٌ نَرْفُدُهُ والدّنيا كراقصةٍ غانيةٍ يَلْهَثُ وراءَها الذّكرانُ وهي سرابٌ. أمّا الحقيقةُ فإنّ الدّنيا ليستَ سرابًا والدّليلُ قَطْعِيٌّ في وُجْدانِ كلِّ إنسانٍ ولأنّها مرافىءُ للرّحيلِ أن تزَوّدَ بما في الحقائبِ من أعمالٍ وكلماتٍ وهَفَواتٍ وإرهاصاتٍ وخطايا وحَسَناتٍ وكلّها مِن هنا، مِن هذه الفانيةِ فلِماذا تَكونُ سرَابًا وتكونُ حياتُنا الدّنيا صحارى جدباء.

أولًا لأننّا كَرِهْنا الاستقامةَ ومالَتْ الأنفسُ نحو الهوى وطابَ لها العيشُ في ظلالِ أشجارٍ غيرِ وارفةٍ ولا مُثمرةٍ ولا نافعةٍ. والسّبيلُ لاستبدالِها بأشجارٍ جيّدةٍ هو الرّجوعُ والذّهابُ إلى شَرْعِ اللهِ ومن هنا يُصْبِحُ الاعوجاجُ مُسْتَقيمًا وتَصْلُحُ كافةُ الأمورِ. والبدايةُ تكون من نَفْسِكِ فلا تَقُلْ لِوَلَدِكَ صَلِ بل عَلّمْهُ كيف يُصَلّي ولا تُنَبّهْهُ من الرّدى بل أَزِلْ من دُروبِه العَثَراتِ ودَعْهُ يسيرُ ويَكْتَشِفْ ذاتَه ويُلاحِظُ أهميتَهُ كَوْنُهُ مَخْلوقٌ ولا يَعْبُدُ إلّا اللهَ وكلُّ شيءٍ له، سَخّرَهُ اللهُ له وواجِبُهُ الاهتمامُ بكلّ نِعَمِ اللهِ وبالتّأكيدِ خَلَقَنا لِنَعْبُدَ اللهَ ولِنحيا حياةً طيبةً ونرضى بنصيبِنا ممّا أُعْطِيَ لنا، وماعدا ذلك مهما بَلَغَ من الشّدةِ والصّعوبةِ يزولُ ويَصْغَرُ ويَنْدَثِرُ بقوةِ الإيمانِ. الأولويةُ لِلميزانِ عقلُكَ وقلبُكَ وحواسُكَ وكلُّ أنفاسِكَ وكلماتِكَ وأعمالِكَ مقابل كتابِكَ الذّي ستأخذُهُ يومَ القيامةِ بيمينِكَ بإذنِ اللهِ.

خُذْ اليمينَ اتجاهَكَ وسِرْ على بركةِ اللهِ وتَسَلّحْ واجْعَلْ من الخَرابِ بِناءً ومن الدّمارِ عَمارًا ومِن البورِ أَرْضًا خَصْبَةً ومن السّوادِ بياضَ. نورُ ربِكَ يُطفىء فيكَ كلّ النّوايا السّيئةِ وشُعْلاتِ إبليسَ وحَركاتِ الشّياطينِ واتكلْ على ربِكَ واستغفرْه واعملْ. اللهُ قالَ في كتابِه الحكيم (وقل اعملوا)[٤]، وكثيرٌ منا كُسُالى وحتّى العامِلونَ منا يَتَرَنّحون كأنّهم سُكارى أومُتْعَبونَ. واجِبٌ علينا الإتقانُ بالعَمَلِ وكلّنا نُهْدِرُ الوقْتَ ونُسْقِطُهُ ولا نَجْعَلُ لهُ قيمةً إلّا باللّهو والاستجمامِ

[٤] سورة التّوبة، الآية ١٠٥.

ونُسْرِفُ ونُبَذّرُ في الهوى ومَلَذاتِ الدّنيا الخرَساْءِ ونعيمِها القادمِ إلى زوالٍ وغالبيتُنا لا يعرفُ للنّعمِ الثّابتةِ الباقيةِ التّي تربو وتنمو بحياتِنا ومماتِنا معنًى، ومنها حوارُنا مع اللهِ بالصّلاةِ والإنصاتُ إلى حديثِ الحبيبِ، وتلاوةُ سُنَنِهِ والاقتداءُ بِسِيَرِ الخُلَفاءِ والأجدادِ والصّالحينِ الأخيار.

مجردُ اتقانِنا للمعرفةِ الحقّةِ لِنِعَمِ اللهِ يشْعِرُنا بأشياءَ مُخْتُلِفةً تُقَرّبُنا إلى الملائكةِ وتُنَشّطُنا لِلعباداتِ المفروضةِ كلّها وبكلّ مساربِ أعمارِنا. القلبُ مكانٌ لِلأحلامِ ولِلأُمنياتِ وللنّوايا الحِسانِ والعقلُ مقرٌ لإصدارِ القراراتِ وتنفيذِ ما يخوضُ به القلبُ من نَبْضٍ وانفعالاتٍ. الرّضا من النّعمِ الجِسامِ بكلّ ما أَوتِيَ لنا وما لم يُؤتَ إلينا وبقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ. حالةُ الرّضا لاتَحْرِموا أَنْفُسَكُم منها؛ فهي المفتاحُ إلى الحياةِ بمقربةٍ من اللهِ وهي مفتاحٌ لِلفرجِ ومفاتيحُ لكلّ الأبوابِ المُغْلَقَةِ في دُروبِ الحياةِ. كُنْ مع اللهِ ولا تُبالِ وامضِ حامدًا شاكرًا ولا تُذْهِبْ أيامَكَ في جفاءٍ؛ فالوَقْتُ سيفٌ إذا ما انقضى بلا بَصَماتٍ وهو تمامًا كالقلمِ يُبْرى لِيُحَسّنَ كتابتِكَ ولِيُجَدّدَ فيكَ كلّ شيءٍ: شكلًا ومضمونًا؛ فتَتَقَدّمُ إلى وقتِكَ المعلومِ ولا تَسْقُطُ بسُقوطِه وتتَرْفَّعُ عن الخوفِ لغيرِاللهِ

ومن ذِكرياتِ الطّفولةِ حارةٌ مليئةٌ بالحياةِ، غزيرةُ الضّجيجِ كثيرةُ الحَرَكاتِ، فيها الكلّ أهلٌ وأصحابٌ. تَلَوُّنُهُ وتَنَوُّعُهُ يزيدانه أُلْفَةً ووِدادًا. وفجأةً، جاءَ الغيلانُ، وأحرقوا المنازلَ وعاثَوْا بها الفسادَ وأمعنوها قتلًا وإجرامًا. وشَوّهوا مَعالِمِها ووصلوا حتّى إلى الوجوهِ والقلوبِ والوِجْدانِ. كَرِهْتُ طفولتي زَمنًا أُرْهِقَتْ فيه دماءُ الأبرياءِ. وسَئِمْتُ من عيونٍ تَلْمَعُ خوفًا ونواصٍ تَرْكَعُ ذُلًّا والإنسانيّة تقضي غَدْرًا والتّقاةُ صاروا مُلْحِدينَ والحامي أَصْبَحَ مع الأعداءِ.

تبًّا لِلعربِ وسُحْقاً للوحدة التّي بها تغنوا في زمن التخدير حتى النسيان والتشهير بلغ أقصى التجاذبات بين طرف واحد هو القاتل وبلا حياء. وعلى وقاحة وقباحة حولونا إلى مكان لاطلاق السهام ومشاريع موت بلا أكفان.

حرب السنتين في طرابلس لبنان.

الفصل العاشر

وُلِدْتُ وحيدةً وعِشْتُ وحيدةً رغم أنّي محاطةٌ بِجَمْعٍ غفيرٍ من النّاسِ من مُختَلفِ الاتجّاهاتِ والأطيافِ ومعهم أُتَمّمُ وُجودي ولو كانَ اللّقاءُ قليلًا وكاد يكونُ أيضًا مُنْفَرِدًا. يُغْنيني عن كلّ الدّنيا ابتساماتٌ ووجوهٌ جميلةٌ وكلماتٌ طيباتٌ.

ها أنا أسيرُ مسلحةً بقلمي ومكتبتي وإيجابيّاتٍ صغيراتٍ ومُغْمِضةً حواسي عن الضّجيجِ والصّراخِ وكلّ ما يسيءُ لقلبي النّقيّ ولوجداني التّقيّ ولِنفسي السّاميةِ.

تاجي حُلْمٌ لا يَمَسّهُ التّرابُ وخطواتي ثابتةٌ فوقَ أرضِ الواقعِ وصَوْلجاني قَلَمٌ ودُواةٌ. لا أُريدُ من الأيّامِ إلّا ما يُعْجِبُ رُقيُّ أفكاري ولا من الحياةِ إلّا مساحاتٍ رائعةً مع الماءِ والشّجرِ والطّيرِ والسَّحَرِ.

هنا في كَوْني لا حدودَ ولا يوجد منزلٌ بين الجدرانِ، ساعاتي إلى مالا نهايات وأمْكِنَتي فضاءاتٌ. ومن بقعةِ الوَجَعِ يَنْتَصِرُ وَطَنُ الجمالِ ومن ميادينِ الأحزانِ قيامةُ الفرحِ.

لا لِلخلفِ أوالجهاتِ فمنافذي سمواتٌ مليئةٌ بالنّجماتِ وبدرٌ في كلّ الأيّامِ. يختفي مني الكُرْهُ ويَسْلِبُني الألمُ كلَّ أساليبِ التّخَلّفِ والانزلاقِ وتُبْعِدُني المشاعرُ البيضاءُ عن شياطينِ الإنسِ والجان. مِنْ حَوْلي أبجديةٌ تُثَرْثِرُ وهي في السّكونِ فكيفَ تُراها تكونُ مع الحركات؟!. لُغةٌ ولّادةٌ بليغةٌ تَكادُ لا تَتوقّفُ عن الإنجابِ ولو أنّها مُحارِبَةٌ ويقتلون الكلماتِ في أرحامِ القراطيسِ ومن على شفاهِ الأقلامِ.

وليس لأنّي بطلةُ قصةٍ عرجاءُ وجِئتُ من لعبةِ كيدِ النّساءِ؛ ولكن لأنّي جدُ واعيةٍ ومُدْرِكَةٍ لِرَوْعاتِ القَضاءِ ومُؤْمِنَةٌ بالقَدَرِ؛ فربُّنا كَتَبَ لنا مصائِرُنا بِخَيْرِها وشَرّها والحمدُ للهِ فقد وَهَبَني بالرّغمِ من نشأتي المُتَعَثّرةِ موهبةَ حبِّ الحياةِ وسَلّحَني بقوةِ الإيمانِ. ومنكِ، يا مُرَبّيتي الغاليةُ، تَعَلّمْتُ لغةَ الإبداعِ ومن وَهَنِ مولدتي كيفَ أكون مُعْجِزَةً عظيمةً سابقةً لكلّ المُعْجِزاتِ.

أحيا وحيدةً، لا يهم؛ فَوَقْتي مُزْدَحِمٌ بأوراقٍ من كلّ الألوانِ بيضاءَ وصَفْراءَ... انسجامي مع حُروفي يَجعلُني أعزِفُ على وَتَرِ الإحساسِ ويَأْخُذُني إلى ما فوقِ السّحابِ. ولِذلك يقيني أنّ الخيالَ ليس هُروبًا بل هو ما نُحِبُّه أن يكونَ وما نرجو اللهَ أن يَتَحقّقَ؛ فالمستحيلُ فيه مَمْكِنٌ والأمنيّاتُ حدائقُ أزهارٍ ربيعيّةٍ والآمالُ نسماتٌ مُنْعِشاتٌ في صيفٍ لاهبٍ حارٍّ.

ومن نسجِ خيالي سأروي حكايةَ حسناءٍ لا تُشْبِهُ سندريلّا ولا هي شهرذاد.

هي أنا في مرايا العُمْرِ المسجونِ في سراديبِ التّقاليدِ الرّعثاءِ الوعثاءِ الباليةِ. مِن بين الأشجارِ كانَتْ تَرْكُضُ وراءَ الفراشاتِ وتَجْمَعُ الأزهارَ وتُغَنّي مع العصافيرِ وتَضْحَكُ بصوتٍ عالٍ. هي البيضاءُ ولكن ليستْ بيضاء الثّلجِ، هي اللّؤلؤةُ النّاصعةُ الثّمينةُ حَلّتْ عليها النّعماتُ واحترقَتْ مِنْ حَولها كلّ اللّعناتِ. ليسَتْ بساحِرةٍ ولكنّها تمتطي عصاها ولا تُشْبِهُ الأسطورةَ ولكن لا تُشْبِهُ إلّا ذاتها. كَبُرَتْ مع الهدوءِ ونَمَتْ مع الطّبيعةِ ملكةَ الحسنواتِ. وعندما رآها الأميرُ الشّريرُ هامَ بمِحْرابِ الجَمالِ ونَحَرَ كلّ ما فيه من إباءٍ وغُرورٍ وكِبْرياءٍ. عاشَ معها أقدسَ اللّحظاتِ وعند لحظةِ الغُروبِ، انقلَبَ على نفسِه وصارَ الحيوانُ المُفْتَرِسُ فخافَتْ منه وفَضّلَتِ الانزواءَ ونادى في المدائنِ منادٍ يقولُ:" مَنْ يَشْفِ المَلِكةَ الحسناءَ تَكُنْ له عروسٌ ويُنَصّبُ على مملكةِ الجَمالِ"!. وجاءَ الكثيرون ولم يُوَفّقْ للأمرِ أَحَدٌ ما، حتّى كان يومًا حين مَرّ راعٍ من تحتِ نافذتِها فَرَمَتْهُ برسائلِ امتنانٍ فقررَ خوضَ المعركةِ ودَخَلَ مُعْلِنًا اسمَ العِلاجِ وفي الحقيقةِ هو نفسُهُ لا يعلمُ ما معنى الدّواءُ.

قالَ لِلأهلِ:" أُريدُها زوجًا وبعدَ الحَفْلِ أعيدُها وستكونُ بشِفاءٍ تامٍ!".

أُقيمَتْ الاحتفالات بعُرْسِ الملكةِ الخرساءِ على فقيرٍ راعي غَنَمٍ، لا يَمْلِكُ حتّى ثَمَنَ اللّباسِ الذّي ارتداهُ. ورَقَصَتْ وفَرِحَتْ وضَحِكَتْ وعندما هَبَطَ المساءُ، رَجِعَ العقلُ إلى عَمَلِهِ يُقَرّرُ الانسلاخَ وعادَتْ وكلّها عزمٌ على أن تتركَ الأهلَ وتَهْرُبَ إلى الطّبيبِ وتحيا حياةَ الحبيبِ، بعيدةً عن التّعَبِ والعِلَلِ وكلِّ الصِّعابِ.

فَوَقَعَ عن وجهِ الحَبيبِ القناعُ؛ هو الجميلُ ابن الأصولِ لن تضيعَ أعمالٌ نواياها لآلئَ مكنونةٌ.

حقيقةٌ يجبُ علينا كتابتُها فوقَ الشّمسِ لِتَشْرُقَ في أعماقِنا كلّ الأيامِ نيةٌ سليمةٌ وعَمَلٌ صالِحٌ، تعني حياةً طيبةً وأعمارًا هنيّةً.
صحيحٌ أنّي اخترْتُ أسلوبَ ابنِ المُقّفّعِ ولكن على لِسانِ الإنسانِ...
ولنْ تكونَ رسائلٌ لسُكانِ القصورِ أوالحُكّامِ بل لكلّ امرىءٍ يَدُبّ فوقَ التّرابِ ويهوى العيشَ في الرّحابِ.
ولكلّ مُشَكّكٍ بِقُدْرَةِ الكلماتِ؛ فهي لن تفعلَ فِعْلَ السّيوفِ بل سَتَكونُ رصاصاتِ رَحْمةٍ للأفكارِ التّي تُدَمّرُ وتسعى لِلخرابِ.
لا يلْزَمُنا الحقدُ ولا يعنينا الحَسَدُ ولا نبغي الشّر، ولا نَطْلُبُ الخُصوماتِ؛ سوفَ نبني الأحلامَ فقط ونُقيمُ الحياةَ ولو لِلحظاتٍ ولو كان العُمْرُ ثوانٍ سَنُمَدّدُه كي يكونَ أَزْمِنَةً من عوالمَ مُحاطةٍ بالسّعادةِ والسّرورِ والهناءِ والحبورِ...
الأفراحُ لا تعني الكُفْرَ والرّاحةُ لن تكونَ الضّلالَ. فالإنسانُ من طينٍ والطّينُ مُحْتاجٌ دَوْمًا للارتواءِ وفي كلّ حينٍ. لا تبخلوا على الدّنيا بأعمارٍ وأفراحِ الانسجامِ مع الذّاتِ ورضا اللهِ ركائزُ للسّيرِ إلى طريقِ الجِنانِ....
هلموا يا معشرَ النّساءِ! بأيديكنّ بيارقُ الانتصارِ على الذّاتِ وفي قُلوبِكن عمائرُ الحبّ وأواصرُ الانتماءِ إلى آدم وحواء...
أيها الآدميُّ الغافِلُ عن الظّنونِ الحَسَنةِ والمُتّجِهُ دومًا صوبَ السّيء منها والحامِلُ رايةَ الغَباءِ وفي تصرفاتِكَ الحماقةُ، انتبهْ جيدًا لكلماتي. أنا لا يعنيني منكَ حُزْنُكَ ولا يَلْزَمُني لفرحي ولا أعيرُ انتباهي لوَجَعِكَ؛ حيث أنّي لا أجد فيه شفائي: الأمرُ كلُّه هو أنّك بِعقلِكَ الفارغِ وقلبِكَ المسكونِ بالكُرْهِ تَدعو على ابتسامتي وترفع الاتهاماتِ إلى سلامٍ ذاتيّ وتُعيرُني بهدوئي ورصانةِ نفسي.
كفاكَ تَهَجُّمًا! لقد كالَتْني الدّنيا مثْلُكَ همومًا وأكثر وجَرَحَتْني الأيّامُ في صميمِ فؤادي وصَفَعَتْني الحياةُ على وجهي مئاتِ المَراتِ وأكثر، ولكنْ واجَهْتُها كلَّها بقوةٍ من اللهِ وايمانٍ كبيرٍ وتَخَطَيْتُ مراحلَكَ التّي تَتَخَبّطُ فيها ووَصَلْتُ إلى هنا بصعوبةٍ وتَعَبٍ ومع ذلك يلْزَمُكَ سنونَ ضوئيّةٌ كي تمحوَ منكَ الحِقْدَ والحَسَدَ وتُبْعِدُ عنكَ الشّرَ والكُرْهَ والغَضَبَ ونيرانَ الأبالسةِ والأنا القاتلةَ.

اترُكِ المِقْوَدَ لِمَنْ خَلَقَكَ، هو سوّاكَ وعَدَلَكَ وأنتَ تُشَوّهُ النّعَمَ وتُسَوِّدُ النّهارَ وتَعْشَقُ الظّلامَ.

الّرزقُ مَقْسومٌ والقَدَرُ مَحْتومٌ؛ قاعدتان لو تستوعِبْهما كُنْتَ تعيشُ اليومَ بشكلٍ أفضل.

فما عندي من اللهِ وما عندَكَ أيضًا وسوفَ نُحاسَبُ عن كلّ بِنْتِ شَفَةٍ وعن كلّ نَبْضٍ وعن أدنى عمل. فالحياةُ لم تُقَدَّمْ لنا عَبَثًا؛ فلا تَسَلْ عن جاهي ولا مالي ولا عن مركزي ورأسمالي ولا عن أيٍّ من تفاصيلِ حياتي، افتَحْ كِتابَكَ واقرَأْهُ. كفى بِه لَكَ دُسْتورًا ومَنْهَجًا ودَعِ النّاسَ وحياتَهم فكلُّ امرىءٍ بما كَسَبَ رهينٌ.

وما أعطاني ربّي لِيَأْخُذَ منكَ ولا مَنَعَ عني لِيُعْطِيَكَ؛ فكلُّ شيءٍ بحسبان وكلّنا نُكَمّلُ بعضنا البعض.ارضَ بنصيبِكَ وعِشْ بِقِسْمَتِكَ ولا تَنْهَشْ من لحومِ البَشَرِ؛ فلحومُ الحيواناتِ هي فقط المُسَخّرةُ لَكَ ولا تَتَعَرّضِ للنّاسِ إذا ما عارضوا هَواكَ أو لم يُوافِقوا رغَباتِكَ؛ فكما عندك من حبّ الذّاتِ وتقديرِها، هم أيَضًا يملكونها. الفرقُ أنّ هناك مَنْ يَقُرُّ باختلافِ المعاييرِ ويُقَدّمُ المحبةَ على كافةِ الأمورِ، وأنّ هناك مَنْ يَعْتَرِفُ بِقُدْرةِ اللهِ وهو على يقينٍ أنّ اللهَ هو الحقُّ العَدْلُ فلا يَجِبُ أن نُناقِشَ موضوعَ الأرزاقِ في المادةِ والرّوحِ ولو بوَشْوَشاتٍ أو حتّى هَمَساتٍ.

يا سيّدتي ويا حبيبتي الغالية، كما رأيْتِ وعَلِمْتِ وأَيْقَنْتِ أنّكِ مَلَكْتِ الكثيرَ من الجاهِ والمالِ والعزِّ وغُمَّ عليكِ أهمُ الأمورِ على الاطلاقِ وهو ما سَأُحاوِلُ بفضلِ اللهِ، يا أمّي ومرآتي ونَفْسي، أنْ أَنالَهُ. أَخْبَرْتِني قصةً لا تزالُ محفورةً في ذِهْني وفي وِجداني وتَحْضُرُني كلّما ثَقُلَتْ على ذاتي الموازينُ ورَزَحَتْ تَحْتَ وَطْأَةِ الأَتْعابِ والهمومِ. شَبّهْتُ حالَتَكِ بالإنسانِ الذّي وَجَدَ خاتمَ سُلَيْمانَ الحكيمِ وظَهَرَ لهُ العِفْريتُ الكَبيرُ والعَجيبُ، وطَلَبَ منهُ أن يُحَقّقَ أمنياتِهِ المُقَدّسةِ وهي: " الأولى العِلْمُ النّافعُ، والثّانيةُ الرّجلُ الغافِلُ والثّالثةُ الابنةُ البارةُ".

ولقد تَحَقّقَتْ كلّها؛ فقد نِلْتِ أعلى المراتِبَ والشّهاداتِ وتَزَوّجْتِ بوالدي الذّي تغاضى عن فارقِ العُمْرِ بينكُما وكُنْتُ لكِ الابنةَ المُرْتجاةَ.

وفي كلّ أمرٍ لم تَرْضَ عنه نَفْسُكِ العظيمةِ، كُنْتِ تشعرين بأنّ هناك ما يُشْبِهُ الفَراغَ الممتلئ بلا حروفٍ أو سطورٍ، وهذا هو يا غالية ما يُطلقون عليه راحةَ البالِ. لقد غُمّتْ عليكِ وعِشْتِ العمرَ تُفتشينَ عنها وتجاهدينَ للحصولِ عليها ولكنّهُ القَدَرُ المحتومُ وإرادةُ مَنْ وَحْدَهُ يقولُ: كُنْ فيكون!.

نِلْتُ معكِ شَرفَ الأمّومةِ وعِشْتُ مَعَكِ أجملَ الأيّامِ وكنْتُ في كلّ لحظةٍ أرى ذاك السّرابَ الذّي كُنْتِ تبحثينَ عنه وتَسعيْنَ للوصولِ إليهِ. لا أجدُ ما أصفُ لِكِ به استيائي، ولكن أَعِدُكِ أنّي سأجدُهُ وسوف أُخْبِرُكِ بذلك في حينِهِ؛ فالوصولُ إليه مشقةٌ والحصولُ عليه مَكْرَمَةٌ. لقد تَغَلَبْتُ على المساوئ كلّها وتَغاضَيْتُ عن الشّرورِ والمكائدِ جُلِّها وصَمَمّتُ آذاني عن البذاءةِ والحقارةِ دقّها. وأعتقدُ أنّ الخطوةَ الأولى بَدَأَتْ بمصالحتي مع نفسي، مُتَسَلّحةً بإيجابيّاتٍ جَمةٍ من مُذكراتِكِ ومواقفِكِ وحُزْنِكِ وقوةِ إيمانِكِ. راحةُ البالِ، يا حبيبة، هي الهدفُ والسّبيلُ والرّجاءُ والقِمةُ التّي سأقفُ عليها. هل أكونُ مُخْطِئةً إذا ما قَدّمْتُ الطّيبةَ على مصلحتي وأَفْسَحْتُ المجالَ لحسناتِ النّوايا أن يَسْبِقْنَ كلَّ السّجايا؟!

اعتقدْتُ لوهلةٍ أنّ الحياةَ ساحاتُ وغًى ومَرَّ في ذهني عَصْفٌ من الجُنونِ مفادُهُ أنّا مجردُ أوراقٍ في كتابِ الدّهرِ ولكن يقيني أنّنا خُلِقْنا كي نعيشَ وليس لنشقَى ولِنُمَيّزَ بين النّارِ التّي تدفِئُنا وبين تلكَ التّي تَحْرِقُ، وبين الماءِ التّي تروينا وبينَ السّيلِ الجارفِ، وبين الهواءِ الذّي يُزكّينا وبينَ العواصفِ، وبين الثّمرِ الذّي يُشْبِعُنا وبين الذّي يُميتُنا.هي تلك النّقطةُ التّي تعتلي رأسَ الخاءِ في خيرٍ وهي النّقطةُ التّي تكونُ في جوفِ الجيمِ في الوجودِ، خيرُ الوجودِ مَنْ وَجَدَ ضالّتَهُ وجَلَسَ وقَعَدَ ونَامَ وسَارَ وهو مُبْتَسِمٌ راضٍ في أعماقِ وِجْدانِهِ، كنزٌ لا يُقَدَّرُ بأثمانٍ ويفوقُ حَجَمَ الأكوانِ؛ هو راحةُ البالِ ومِفتاحُها الرّضا وعلاماتُها سبعٌ: العيونُ الصّامتةُ، والثّغرُ البسّامُ، والحِشمةُ في الكلامِ، والأناقةُ في الأسمالِ، والتّواضعُ للعوامِ، والوجهُ الحسنُ، والتُّقى والعفافُ.

كلّها علاماتٌ لراحةِ بالٍ تأخذُنا إلى أمكنةٍ كلِّها مُقَدّساتٍ، وتُحيينا في أزمنةٍ لا تَخْضَعُ لقوانينِ القِسمةِ: لا ليلٌ ولا تقلّباتُ نهاراتٍ ساطعةٍ وأجواءٌ ساحرةٌ وخريرُ كلماتٍ تنسابُ فوقَ ألسنةِ العشّاقِ. وَصَلْتُ يا سيدةَ الحروفِ إلى هناك،

كم تَمَنَيْتُكِ وشوقي يُهَدّئ من رَوْعِ قلبي ويُثّبِتُني على قناعةٍ ويَمْنَحُني الرّضا والقُبولِ بما كَتَبَ لنا وما كانَ لنا قضاءٌ وقَدَرٌ.

سيدةُ قلبي وملكةُ روحي وأمّي طوعًا وحبًّا، لقد كان ما كان وتَرَعْرَعْتُ في كَنَفِكِ وتَرَبّيْتُ. ومنكِ استقَيْتُ لِحروفي قطراتِ المطرِ ورذاذِ النّدى وشذا العطورِ وروائحِ الزّهورِ، زَيّنْتِ لي سُطوري ومَنَحْتِني القُوةَ والثّباتِ وعزائمِ الأخلاقِ وأركانِ الحياةِ. قَرَأْتُكِ وحَفَظْتُ كلماتِكِ وتَقَمّصْتُ شخصيتَكِ وسَأَجْعَلُكِ، بفضلٍ من اللهِ، تَنْعَمينَ براحةِ البالِ ولو كُنْتِ تحتَ الثّرى؛ فالأرواحُ تتلاقى والمشاعرُ صناديقُ بريدٍ تَصِلُها وتَتَلَقّى كلَّ إحساسٍ وتَسْمَعُ الهاتفَ وترى الأعمالَ وكلّ ذلك رحمةً للعبادِ وتأكيدًا بأنّ اللهَ الواحِدَ هو العالِمُ بكلّ شيءٍ، لا يخْفَى عليه أمرٌ ويُدَبّرُ لنا كلَّ أمورِ الحياةِ في الدّنيا والآخِرةِ.

ها أنا أُحاورُكِ ولو بعدَ رحيلِكِ. أُناقِشُكِ ولو عن غيابٍ، وتَحْضُرين كلّ أجوائي المُجْتَمِعةِ والمُفْرَدَةِ.

وليس سرًّا ولا لُغزًا إذا ما قُلْتُ أنّكِ لا تزالين تَدْعَمين قُوتي وتُحيطيني بِرضاكِ، رَحِمَكِ اللهُ. في لحظةِ ضُعْفٍ بشريّ، أَنْكَمِشُ على نفسي وأتمنى لو أنّكِ معي هناك ولكن سَبَقَ القلمُ وسَطَرَ المصيرَ وكان الفِراقَ.

وفي المَقْلَبِ الآخِرِ، كانت الصّدمةُ عظيمةً على سامي: لقد مرّ في خيالِه كلّ الأمورِ: صَعْبَها وشاقَّها، ولم يخطرْ على بالِه أن يكونَ ابن زِنًا وأن يكونَ في كَنَفِ عائلةٍ غريبةٍ عنه ويَنْعَمَ بخيراتِ والدٍ ليس من أصولِهِ ولا تَرْبِطَهُ به صلةُ الرّحمِ ولا الدّمِ، فقط التّربيةُ والأُبُوّةُ المُزَوّرةُ والإنسانيّةُ المُزَيّفةُ هي العواملُ التّي تجمعُ سامي بعائلته وتجعلُه منتميًّا لها. هل تَعْلَمينَ يا صاحِبتي في الألمِ ورفيقتي في الحُزْنِ أنّي لستُ مُسْتاءًا ولكن لم أتوقَعْ أن أكونَ ابنَ حرامٍ، ابنَ امرأةٍ ساقطةٍ وابنَ رجلٍ فاقدِ الضّميرِ والدّينِ.

- هَوّنْ عليكَ، يا سامي! الحمد للهِ أَنْتَ عَرَفْتَ الآن وأنتَ تَعْمَلُ ولكَ مؤسسةٌ وعندكَ ما يكفي من الجاهِ والمالِ والعِزِّ.
- كلُّه لا يساوي وخزةَ أَلَمٍ ولا يَعْدِلُ نظرةَ ذُلٍّ من عيونٍ تُحاسبُ الضّحيةَ وتعفو عن المجرمِ!

- اسمعني، أنا معكَ هنا ومصيرُنا سَواءٌ.
- لا يا لوليا، أنت تعرفينَ أهلَكِ، أمّا أنا فلا! أين هي تلكَ الغانيةُ الفاسقةُ والتّي أَمْعَنَتْ في الغلطِ مراتٍ: مرةً عندما حَمَلَتْ بي ومرةً عندما رَمَتْني لا بل باعَتْني وبالمالِ ؟؟!! وأَجْهَشَ سامي، الرّجلُ الشّابُ الوَقورُ الحنونُ المتباهي بالبكاءِ.
- يا عيون أختِكَ! نعم أختُكَ وكلّنا عائلتُكَ رَغْمَ أنوفِهم جميعًا، هكذا هو القَدَرُ وهذا هو القَلَمُ الذّي سَبَقَنا وكُتِبَ لنا وعلينا.الحمد للهِ.
- الحمد لله ولكن...
- امتثِلْ بي! سامي، أنا تعامَلْتُ مع الوضعِ بإيجابيّةٍ وتَرَكْتُ المُحاسبةَ وحتّى المعاتبةَ.
- نعم، نعم، أنتِ قُدْوَتي وأنت كبيرتي ولو كنا توأمًا.
- إذن عُدْ إلى حياتِكَ، أكمِلْها، حاربِ الفِسْقَ والفجورَ، واجمعْ نَقْمَتَكَ على الفَقْرِ والجَهْلِ وساعدِ كلّ ذي حاجةٍ، عسانا نكونُ اليمينَ التّي تُزيلُ الوَجَعَ وتَمْسَحُ الحُزْنَ وتَأْخُذُ بأيدي الضّعفاءِ والمساكينِ وذوي الحاجةِ.
- سَأَتْرُكُ المنزلَ وأُعيدُ المالَ لأخواتي، لَكُنّ قَصَدْتُ.
- ههههه! المالُ يا أخي، دَعْه معكَ واجمعِ البناتَ وكُنْ خيرَ سَنَدٍ لهن وهذه أولُ صفعة لكلّ مَنْ جَعَلَكَ تتألمُ.
- معكِ حقٌّ لولوة، ومع ذلك سأعملُ وبمالي الخاصِ ومالُكُن لَكُنّ.
- لن نُناقشَ هذا الآن، المهمُ أنّكَ ستكونُ بخير وستبقى لي الأخَ الحبيبَ الشّقيَّ وسأفرحُ منكَ ونُرَبّي أولادَكَ معًا.
- لا أعلمُ ولستُ مُتَأَكّدًا؛ فأنا لا أَرْغَبُ في أن أُحَمّلَ إنسانًا، كما حَمّلوني، وِزْرَ أفعالٍ شنيعةٍ لا ناقةَ لي بها ولا جمل.
- اتفقنا، اتفقنا! حبيبي ارْتَحِ قليلًا ونَمْ والغَدُّ يومٌ جديدٌ وإن شاءَ اللهُ تكون بدايتُه مختلفةً وجيّدةً لنا جميعًا، وخاصةً لي ولكَ أخي سامي.

(البنات):

- هل نام سامي؟
- نعم، نام.
- أتمنى عليكن جميعًا أن يبقى الموضوعُ سرًّا فيما بيننا، كرامةً لسامي ولِوالدَيْنا وحتّى لا نؤذي أخانا أكثر ونُصْبِحُ مضغةً على كلّ الألسنةِ؛ تلوكُنا في الباطلِ والحقّ وكلاهما لا نريده يا شقيقاتي.
- نعم لوليا، طبعًا لا علاقةَ لأحدٍ بالموضوعِ ولا حتّى أزواجنا أو أولادنا.
- سأنصرفُ وأعاود المجيء غدًا، لنرى ماذا سيفعلُ سامي ونكونُ جميعنا معه. السّلام عليكن وبأمانِ الله، أراكن غدًا.

كم أحتاجُكِ يا سيدةَ النّساءِ الآن! ماذا عساني أفعلُ مع مشكلةِ سامي وكيف أكونُ له عونًا وسَنَدًا؟

احترْتُ في الحقيقةِ وأنا من طَبْعي ألّا أُجامِلَ في أمورٍ صعبةٍ ومؤذيّةٍ، وأقولُها كما هي: هو ابنُ حرامٍ والعياذُ بالله ولكن ما ذَنْبُهُ!؟...

نَهَضَ سامي مُتَجَهّمًا ووضبَّ حقيبَتَهُ، تَرَكَ رسالةً لشقيقاتِهِ وغادَرَ المنزلِ، واستقرَّ مؤَقتًا في فُنْدُقٍ ريثما يَجْدُ له مسكنًا جديدًا. وابتعَدَ... وصارَ من رُوّادِ الملاهي اللّيليّةِ والأمكنةِ التّي بسببِها وُلِدَ وبيعَ...

ورافَقَ بناتِ اللّيلِ وحاوَلَ أن يُفتِّشَ عليها؛ ليس حبًّا فيها أو شَوْقًا ولكن ليرى تلك التّي باعَتْهُ بحِفْنةٍ من المالِ...

هو الخلوقُ وصاحبُ الدّينِ، تَغَيَّرَ وانغمسَ في الرّذيلة، وتواجَدَ كثيرًا في بيوتِها ومحلاتِها؛ ليس حباً في مُجونٍ ولكن هو جنونُ النّقمةِ والبحثُ عن مَنْ حَمَلَتْهُ وجَعَلَتْهُ ابنَ زانيةٍ. وَحَمّلَتْهُ بصمةَ العارِ، وإن لم يعلمِ الآخرون بها أو يرونها بشكلٍ واضحٍ؛ فهي راسخةٌ وبعمقٍ بينه وبين ذاتِهِ.

ابتعدَ وقَرَّرَ بعد حينٍ إنشاءَ مَنزلٍ للمَرْميينَ والمُهَمَّشينَ واللّقَطاءِ أمثالِهِ. بكلّ قَهْرٍ وعزيمةٍ، نوى ونَفَّذَ وكان يدعو كلّ مَنْ يَجِدُهُ في الشّارعِ نائمًا ومُتَشَرِّدًا، ليحيا حياةً كريمةً في دارٍ لِلمُحْتاجينَ.

واجتمعَ في تلك الدّارِ الطّفلُ البائعُ المُتَجَوِّلُ، والشّابُ المُدْمِنُ، والرّجلُ المَطرودُ من بيتِهِ وعائلتِه وكثيرٌ من حالاتٍ تُدمي القلوبَ وتُبْكي العيونَ...

هذا العجوزُ كانَ يَفْتَرِشُ الرّصيفَ، ويَقْتات من الزّبالةِ ولمّا رَأَيْتُهُ وَسَطَ النّهارِ وفي عزِّ الصّيفِ كأنّه جيفةً عليها الذّبابُ والحَشَراتُ ويُغَطّي جَسَدَهُ الهالِكَ بوَرَقِ الجرائدِ والأكياسِ الفارغةِ.

لم يكن سَهْلًا عليّ إقناعُه بالمجيءِ معي؛ فهو بلا هُوية ولا يَعْلَمُ عن نفسِهِ شيئًا، وليس مُسْتَعِدًّا لِلتّعَرُّفِ على عائلتِهِ. في شعورِهِ الباطِنِ قساوةٌ ورفضٌ؛ لقد كالوه حُزْنًا وأَلِمًا ووَجَعًا، طَرَدوه من مَنْزِلِه. نعم طُرِدَ وبكلّ وقاحةٍ يُرَدِدون ذلك: عندما عَمّمَتِ القوى الأمنيّةُ صورتَهَ، جاؤوا لا ليأخذوه بل لِيُوَقّعوا على مُسْتنداتِ دُخولِهِ إلى المَرْكَزِ. وهكذا صارَ نَظيفًا، معافًى، نهتمُ به بسعادتِهِ؛ فاعتمادي هنا، يا شقيقةً لم يلدْها أبوايّ، على شعورِهم جميعًا بالسّعادةِ. هذا الذّي خَرْبَشَ الزّمانُ وشِدّتُهُ على وَجْهِهِ فجعَلَهُ مُتَعَرّجًا ومُسْوّدًا وأجوفَ؛ فصارَ مُرْتاحًا يبتَسِمُ ويَضْحَكُ ويَنْعَمُ بقليلٍ من رَغَدِ العيشِ. يلعبون الوَرَقَ ويشاهدون التّلفاز، ويَتَبَارون بالطّاولةِ، ويُصَلّون ويفرحون ويجلسون في الحديقةِ يتسامَرون. لقد تَحَوّلَتْ حياتُهم إلى استقرارٍ وراحةٍ نَفْسيّةٍ والحمد لله.

يروي هذا الرّجلُ كلَّ الاهاناتِ التّي تلقّاها من ذوي الصّلةِ والرّحمِ: مَنْ كان مفروضٌ عليهم خَفْضَ جناحَ الذُّلِ من الرّحمةِ وأن يذكُروا كيفَ ربّاهم وهم صِغارٌ... كيفَ كان يُطْرَدُ ويَجوعُ ويُهانُ، كيفَ كانَ يُشْتَمُ ويُسَبُّ ويُعَذَّبُ... إلى أن يَبْلُغَ الظُّلْمُ نهايتَهَ فيُمْعِنونَ في قَطْعِ كلِّ أواصرِ القُربى وعامَلوهُ على أنّهُ مُجْرِمٌ. عُمْرٌ بَلَغَهُ عِتِيًّا وتمادى الخَرَفُ فيه إلى حدٍّ جَعَلَهم يَفْقُدون أهليّةَ التّعاملِ معه. مُرْهَفُ الإحساسِ، عيناه تحكيان قِصَصَ الوَجَعِ والوِحدةِ والحِرْمانِ وعلى لسانِهِ الذّكْرُ والدّعاءُ والصّلاةُ. ممنونٌ من أقل شيءٍ تُقَدّمُه له حتّى ولو كان حبةً صغيرةً أو كأسَ ماءٍ. فيه أشياءُ إذا ما نَطَقَ بها هَزَّتِ الجِبالَ وفاضَتِ البِحارُ وأَمْطَرَتِ السّماءُ حجارةً من شدّةِ النّقمةِ التّي حَمّلوه إياها عن قَصْدٍ أو عن غيرِ قَصْدٍ. وها هو اليومَ، رجلٌ عجوزٌ، فكاهيُّ المِزاجِ، ومُرْتاحُ البالِ والمواييلُ والدّلعونةُ والأهازيجُ له رفاقٌ.

اضحكي معي يا لوليا؛ فهو دومًا ما يسأَلُني: " كيفَ تكونَ المياهُ ساخِنةً وتَتَحَوّلُ بثانيةٍ إلى باردةٍ مُثَلّجةً؟! هل هناك سِحْر؟ أم شيخٌ يقرأ على الفُنجانِ؟!" وأَضْحَكُ ويَضْحَكُ ونُقَهْقِهُ معًا ونَشْرَبُ. ومن أحلى لحظاتي تلك

التّي أَمُرُّ بها على مَضْجَعِهِ، أُسايرُهُ وأحادِثُه وأَتَلَمّسُ البَرَكةَ من قُبْلَةٍ فوقَ جَبينِهِ أو من ضمٍّ يميني على يَمينِهِ أو عِناقٍ يَحتاجُهُ لِيَسْتَمِدَّ منه المَحبةَ والأمانَ...

شكرًا أختي، لقد وَجّهْتِني إلى هذا العملِ الذّي بهِ اكتمَلَتْ مسيرتي الإنسانيّةِ وحَقّقْتُ وأُحَقّقُ كلَّ أُمْنيةٍ وأُزيلُ كلَّ النّقماتِ فأُحَوّلُها إلى نِعمَةِ التّفَكُّرِ في كلّ حالةٍ أسوأَ مني ومن قَدَري يا عزيزتي!

العجوزُ يُمَثّلُ المرآةَ التّي ينعكِسُ داخلها والدي وأُصِرّ على رؤيةِ وجهَهُ برّاقًا ولامِعًا وخالٍ من كلّ عَيْبٍ وعلى جبينِهِ وَقارٌ وفوق سِحْنَتِه هَيْبَةٌ وجَمالٌ. نعم، هو والدي الذّي فَقَدْتُهُ ، هو والدي الذّي رماني حتّى دون أن يَعْلَمَ بوجودي. أختي التّي تَعَلّمْتُ منها كيفَ أُواجِهُ السّوادَ وكيف أُطْفِىء النّارَ وكيفَ أكونُ إنسانًا بارًا...

أنتِ لي سَنَدُ وأَعِدُكِ أنّي سأكون لكِ وَجاءً؛ فلا تحرميني من طَلّتِكِ ومن حُضورِكِ ومِن آرائِكِ ومن نصيحتِكِ. يا حبيبتي، معكِ الحياةُ جميلةٌ وغاليةٌ وسنبقى مُجْتمعين مع شقيقاتِكِ وشقيقاتي على الحبِّ والتّعاونِ والصّلاحِ والفلاحِ، مُحاطينَ برضا الله وبَرَكَتِهِ ومُجَلّلين بأثوابِ السّعادةِ والأَمَلِ.

العمّ ابراهيم مشكلتُه مختلفةٌ: هو إنسانٌ ثريٌّ ولكنّهُ غيرُ مَحبوبٍ ويقضي نهاراتِه هاربًا بين الشّوارعِ وجالسًا على الأرصفةِ وإذا أعطاه أحدٌ صَدَقةً، يَصْرُخُ به قائلًا: " معي من المالِ ما يكفي بلادٌ ولكنّهم طمّاعون ويريدون أن يرثوني وأنا على قيدِ الحياةِ! لم يَعُدْ بهم صَبْرٌ ويحاولون إيذائي ووَصْفي بالجُنونِ. صحيحٌ أنّي كَبِرْتُ وأنّ العَقْلَ بَدَأَ يَصْغَرُ ولكنّي مكتفٍ ولا أعوزُهم؛ فهم خبيثون يُريدون المالَ والأملاكَ ثمّ بعدَها سيرمون بي. هكذا هم بِلا ضميرٍ، فكيف أَتْرُكُ مالي لهم؟! لقد أوصَيْتُ به كلّه إلى المُؤسّساتِ الخَيريّةِ بعد موتي وتسديدِ مصاريفَ دفني"... وها هو الآخَرُ يَنْعَمُ ويَسْعَدُ مع رِفاقِهِ في الدّارِ، بلا خَوْفٍ ولا تَشَرّدٍ أو فَزَعٍ من أحدٍ.

وأكثرُ مَنْ عَلّمَ في نفسي هذا الرّجلُ العِصاميُّ الذّي كافحَ لِيَربيَ أولادَهُ ويجمعَ ثَروتَهُ، فَخَذَلَهُ الأبناءُ وكَرِهَهُ الأحفادُ لأنّهُ حَرَمَهُم من الإرْثِ بعد أفعالِهم الشّنيعةِ والبَشِعةِ التّي قاموا بها، من إهمالِهِ وضَرْبِهِ وتَعْنيفِهِ وإلحاقِ صفةَ الجنونِ به. وما زالوا في المحاكم يَصْرُخون! وهو معنا مُرْتاحُ البالِ والضّميرِ.

والحالةُ الثّالثةُ، طفلٌ بائعٌ مُتجوّلٌ، انتَشَلْتُهُ من براثِنَ عِصابةٍ استغَلَتْ فُقْدانَهُ لوالديْهِ في الحَرْبِ السّوريّةِ، وانتَهكَتْ كلَّ الحُرُماتِ من تَعْنيفٍ واعتداءٍ وتَشويهٍ لبراءَتِهِ واستغلالٍ لطفولتِهِ. عمِلْنا على تحسينِ حالتِه النّفسيّة؛ فقامَ بنشاطاتٍ عدّةٍ وتمارينَ نفسيّةٍ وجَسَديّةٍ حتّى استطاعَ الاندماجَ في المدرسةِ مع البقيةِ.

وجاءَ هنا يحتمي من غَدْرِ النّاسِ ولؤمِ الظّالمينَ.

وازدادَ عددُ الحالاتِ وكَبُرَتِ المؤسسةُ بقاطنيها، وصار هذا المكانَ بحقٍّ المكانَ الذّي أواسي فيهِ نفسي من حُرْقَةِ البلاءِ وأَصْبِرُ فيه على مصابي وأَنْعَمُ بإنسانيتي وأهزأُ بكلّ مُرْتَكِبٍ للفاحشةِ، بشتّى صفاتِها الماديّةِ والمعنويّةِ.

تلكَ أقدارُنا تَجْعَلُنا نَسيرُ على الصّراطِ ونختارُ إمّا اتجاهَ اليمينِ أو اليسارِ؛ فلا ثالثَ للقرارِ. وأنا وأنتِ اختارَ لنا اللهُ أن نكونَ شركاءَ في الوجعِ وفي الخيرِ على السّواءِ.

أريدُكَ فارسًا بطلًا وبكلّ المعاركِ مُنْتَصِرًا. ولِمَ لا وحصانُكَ أصيلٌ وسيفُكَ مُرَصّعٌ والتّرْسُ مُحَصّنٌ، وأعداؤكَ يصبحون أنصارًا، والسّاحاتُ لكَ تَتَزَيّنُ.

أريدُكَ لسانًا عَرَبيًّا قويمًا ومُبينًا؛ تَقْرَأُ وتُنْشِدُ وتُرَتِلُ وتَتْلو الأحاديثَ وتحكي القِصصَ وتروي الحكايا.

أريدُكَ عينيّ ونظراتِهما، فمدادُ الألوانِ معكَ يزهو ويَتَلَأْلَأُ، وأَقُرُّكَ آذانًا تُنْصِتُ للهمساتِ وتجعلُ الصّراخَ كلامًا لائقًا. أريدُكَ عِطْرًا يفوحُ في ذاتي سِحْرًا وعَبَقًا وروائحَ زكيةً.

أريدُ قلمًا يخطُّ نبضاتِ وَتينِ القلبِ فوقَ شرايينِ الرّوحِ، ويَنْثُرُ في الأمكنةِ المِسْكَ والبَخورَ، ويزيدُ قُرةَ العينِ رقرقةً وعُذوبةً، ويَرسُمُ الفرحَ على الملأِ، ويَنْثُرُ رذاذَ دُواتِهِ فوقَ الوجوهِ ابتساماتٍ وحبًّا وشوقًا وحبورًا....

منكَ وإليكَ صباحاتٌ مُشْرِقةٌ تُحَدّقُ الألوانَ وتَجْعَلُ البياضَ نقيًّا ناصِعًا، حتّى كأنّكَ الشّمسُ أمامي، تُبْهِرُني شعاعاتٍ وأنوارًا!

وأنا يا أختي العزيزة، راحَتْ حواسي إلى وَطَنِ الحُروفِ كي تَطْلُبَ اللّجوءَ وتنالَ شرفَ البقاءِ.

تَدَرّبْتُ على لغةِ الحبِّ ونَطَقْتُ بلغاتِ الشّوقِ والحنينِ وحَمَلْتُ جوازَ عُبورٍ إلى قُلوبِ النّاسِ المُحْتَرمين.

تلكَ صلاتي، تَنَزُّهُ سطوري من كلماتِ الضّلالةِ والغَضَبِ وتَرَقُّقِها وتَفَخّمِها لتكونَ بيضاءَ بأجنحةٍ ملائكيّةٍ.

أنتَ الذّي تَقْرَأُ أبجديتي لا تَسْقُطُ منها حركةٌ ولا حتّى سكونٌ؛ فالصّمتُ معي ثرثرةٌ واللّسانُ فصيحٌ، أمّا قلمي فهو الرّسولُ الأمينُ.

خُذْ بنظراتي وإليكَ مسمعي ومعهما نعيمي وشَقْوَتي وعديدُ نبضاتٍ وكثيرُ وَمَضاتٍ؛ يَلْزَمُكَ منهم الغزيرَ كي تسقيَ تُرْبةَ قصيدتِكَ الجافةِ ولِتَرْوِيَ زهورَ خيالِكَ اليابِسةَ. معي كنوزٌ لا تنتهي، وبِحوزتي ينابيعُ لا تختفي، تَلْزَمُني هُويةٌ فقط كي أُجاهِرَ بوَطَنِيّتي وأُعْلِنُ انتمائي إلى عالمٍ، أخافُ أن يُنْكِرَني ويَدْعو عليّ ويَسْلِبُني منزلي وشرفتي، هوائي وأوراقي. وَطَنُ التّرابِ، أنتَ لي كَوْنٌ ومدادُ بكلّ لونٍ وسِحْرٍ وروعةٍ وجَمالٍ؛ فلا تَكِلني إلى سارقٍ ولا إلى مارقٍ ولا عابثٍ أومُحْتَلٍ، أُريدُكَ لي ملاذًا ومَفَرًّا.

أُحِبُّكَ أعوامًا من الخيراتِ وثوراتٍ من الأفكارِ وحروبًا على الخَرابِ والدّمارِ وأُحِبُّكَ حدائقَ وبساتينَ، شوارعَ وضِيَعًا ومُدُنًا، وأَبْنِيَةً وأناسًا طيبين. أَعْشَقُكَ بناسِكَ الطّيبينَ، وأهواكَ من الأزَلِ ومع أنّكَ تَحْتَلُّ فؤادي؛ فأنا لا زِلْتُ أَحْمِلُ صِفَةَ اللّجوءِ، إليكَ يا وطنَ التّرابِ والنّجومِ. تعالَ معي يا أخي، لِنستعِدْ حقوقَنا من زمانِنا، نسيرُ بين الشّجرِ، نَتَنَشّقُ عطرَ الزّهرِ ونرتوي من مياهٍ عَذْبَةٍ ونتناولُ ثِمارًا لذيذةً، ونَغْسِلُ وجوهَنا بِقُرةِ أَعينِنا، ونُزَيّنُ أَنْفُسَنا بنبضاتِ قلوبِنا، ونبني إنسانيتَنا من الطّينِ ونُعْطِيها الأخلاقَ والصّفاتِ الحميدةَ، ونهدي القَراراتِ الرّشيدةَ والآراءَ السّديدةَ. نُبَيّضُ الأيّامَ ونُقَدّمُ الرّوحانيّاتِ على الماديّاتِ، ولِنَنْظُرْ إلى فوق دائمًا ونقفْ فوقَ التّرابِ بثَباتٍ. نُوَزّعُ الكراماتِ والابتساماتِ والبِشاراتِ وهكذا نَغْلِبُ الصّعوباتِ ونُمَهّدُ الحياةَ للأجيالِ.

ويجيبُ سامي شقيقتَه الرّوحيَّةَ وتوأمَه:

" يلزَمُني بضعةُ أوراقٍ وقلمٌ وكثيرٌ من الحروفِ وأبجديةُ العشّاقِ كي أُنْجِزَ أحلامي وأوجزَ مشاعري، وعميقٌ من كبرياءِ أنثى وعظيمٌ من عُنْفوانِ الشّبابِ وغزيرٌ من حُكْمِ الزّمانِ. في البدءِ، كُنْتُ ريشةً تتمايلُ وتميلُ فوقَ السّطورِ

العِجافِ وتابَعْتُ المسيرةَ حتّى وَصَلْتُ إلى قَلَمٍ مدادُه قلبٌ وعرشُهُ اللّغةُ العربيّةُ، وهو السّلطانُ ذو التّاجِ المُرَصّعِ بنواصِعِ الكلماتِ، والصَّوْلَجانُ المَرفوعُ أمامَ رعيةٍ من الأحلامِ.

ولِمَنْ الحبُّ يا تُرى يكون؟! والهوى أسطورةٌ من تاريخِ العِباراتِ ومن موسوعاتِ مُرادِفاتِ العُشّاقِ.

والجمالُ يليقُ بسحاباتِ الرّبيعِ والحضورِ لأناقةِ ينابيعَ تَتَفَجّرُ بعد ذوبانِ الثّلوجِ، والشّعر محصورٌ بلسانِ شاعرٍ لا يُشْبِهُ الجاهليين ولا النّهضةَ ولا ما بينهما، هو يُنشِدُ قصائدًا دون قوافٍ أو أوزانٍ، من غيرِ قيودٍ أو أغلالٍ؛ ينطلقُ في سوقِ السّامقاتِ الثّائراتِ...

يا أوراقُ تناثرَتْ هنا وهنالك وهناك، وعليها مغامراتٌ وحكاياتٌ وألغازٌ بعنوانٍ بلا ألوانٍ وفي ساحاتِ الإلقاءِ والإنشادِ وميادينِ الإلهامِ، والإبداعِ تنطلقُ دعواتٌ وتُطْلَقُ الادّعاءاتُ وتَتَوالى جُمَلٌ مُتَحَرّكةٌ، تَدُبُّ فوقَ الألسنةِ ويَصِلُ صداها إلى الأعالي وفي الأعماقِ وفي كلّ الجِهاتِ.

لقد سَقَطَتِ المفاعيلُ والفَعولُنُ وحَلّتِ الرّوحُ في الكلماتِ وصارَتْ الحواسُ لواقطَ والوِجدانُ ناشرًا للمحبةِ والمديحِ والغَزَلِ والفَخْرِ والانطلاقِ....

نَسَماتٌ تَخْرُقُ الجدرانَ وتَعْبُرُ القاراتِ وتُلامِسُ وجوهَ الحِسانِ. تَنْقُلُ للعيونِ كحلًا يُوَسّعُ مداها ويُنَقّي شذاها ويَجْمَعُ بين قرةِ العينِ ونَبْضِ الحَرْفِ برابطٍ مُقَدّسٍ وشهادةِ الأشجارِ. تَحُطُّ على أغصانِ العُقولِ أفكارٌ وأحلامٌ، وتُزَقْزِقُ نثرًا فوقَ آذانِ الطّبيعةِ تُسْمِعُ صَمَمَ البشاعةِ وتُلغي سكونَ الجمادِ. ولذلك يلزَمُني عمرٌ طويلٌ مع راحةِ البالِ، لأُتِمّ رسالتي ولِأحَقّقَ وجودي وأنتصرُ على الهزيمةِ، وأُعْلِنُ نهايةَ إعجازٍ من وطنِ السّلامِ."!

وتَرُدّ لوليا قائلةً:

" لاقيْتُ استحسانَ حِسانٍ وكُرّمْتُ بمقامٍ رفيعٍ، ولا تزالُ حروفي محابرً مدادُها بحورٌ، ولا تزال أقلامي من خشبِ الأرزِ أَرْصُفُ بها السّطورَ، فَتُنْبِتُ كلماتٍ لا تُشْبِهُها كلماتٍ: للحبِّ، لِلوطنِ، والأمّ والأبّ، وللأخِ وذوي القُربى من صلاتِ الدّمِ والرّوحِ والجمالِ والحياةِ...

فيا كلّ الحياةِ، أرفدوني بغزيرِ أفكارٍ حالمةٍ وخياليّةٍ وعديدَ كُتُبٍ وموسوعاتٍ روائيّةٍ؛ فبالقلبِ قدرةٌ تَغْلُبُ كلّ حجارةِ الأرضِ وحديدَها وتُفَتّتُ القاسيَ وتَصْهُرُ الجَمادَ. الكلمةُ الطيّبةُ، والابتسامةُ الجميلةُ، والنّفْسُ الأمّارةُ بالخيرِ، كلُّها سِماتٌ تَجْعَلُ من قَلَمي قلبًا ينبِضُ للبناءِ والغَرْسِ، والعِلْمِ والازدهارِ، الرّقيّ والسّمو والانطلاق.

اغزُ يا قلمُ أوراقي الخريفيّةَ، لوّنْها بألوانِ الطّيفِ واجعلِ الأصفرَ أقلَّها ظهورًا، لا ينفعُ مع الإقدامِ ركائزٌ من وَهَنٍ، أو أعمدةٌ من وَهْمٍ. تَمْلِكُ يا قلمَ أن تَجْعَلَ المستحيلَ هَيّنًا والصّعبَ مقبولًا، وأن تضيءَ اللّيالي الحالكاتِ وأن تُحَوّلَ زائراتي الغائكاتِ إلى أميراتٍ. وما تلكَ إلّا يميني أَخُطّ بأنامِلِها اللّؤلؤيّةِ وحروفُها الماسيّةُ لا تَصْدَأُ ولا تختفي ولا تَنْدثرَ ولا تختفي. هي الرّوعةُ التّي تُنْشَدُ والأمامُ المُرتَجى والزّمنُ المُتَجَدّدُ والأمكنةُ السّاحرةُ. وِحْدَتي زِحامُ كلماتٍ وهدوءِي جِفْنةُ التزاماتٍ وسكوني غالبًا ما يكون حركاتٍ...

ترانيمُ ذكرياتٍ ونَغَماتُ حنينٍ وموسيقًى للفرحِ الحقيقيِّ: الفعلُ والفاعلُ والمفعول. لي ولَكَ ولِلجميعِ."...

ويجيبُ سامي لوليا قائلًا: " يجولُ في خاطرتي أفكارٌ موجعةٌ وتَلِحُّ على وجداني أسئلةٌ صعبةٌ،

ومِنْ تلكَ الأفكارِ والأسئلةِ جُمْلةٌ تَتَصَدّرُ بياني وهي:" لماذا أَكْتُبُ ولِمَنْ وأمّتي تَفَتّتت وصارَتْ لُغَتُها لهجاتٍ مُصْطَنَعةً وطلّابُ العِلْمِ فيها مُتَشَبّهون بالفرنجةِ؛ بألسنتِهم العوجاءِ وكتاباتِهم العرجاءِ؟ وما النّفعُ من الكلماتِ والجوعُ مُنْتَشِرٌ والجَهْلُ مُتَفَشٍ والحروبُ قائمةٌ؟! وعندما طُلِبَ مني المشاركةُ في موقعِكُم الأغَرِّ، رَدَدْتُ على أبجديتي وفي عُنُقِ دُواتي ما هو آتٍ: سأَكْتُبُ وأَظَلُّ أَكْتُبُ ولكنّه ليس ابداعًا؛ فالإبداعُ هو أن نُنيرَ شمعةً في ظُلُماتِ عقولٍ تَنْشَأُ. والإبداعُ هو أن نَمْسَحَ دمعةً من على وَجْنةِ طِفْلٍ يَفْزَعُ، والإبداعُ أن نَكْتُبَ ونَعْمَلَ وإلّا فكلماتي هَباءٌ وأعمالي، عفوًا من نفسي، لا تعدو نُباحًا أو مُواءً أو عُواءً ولا ترقى حتّى إلى الزّئيرِ...

وفي القَلَمِ نَبْضٌ وفي القَلْبِ حروفٌ، مُتلازمةٌ تسطُرُ الكلماتِ بنغماتٍ رائعةٍ ومعانٍ طيبةٍ. ولذلك أَكْتُبُ الحُبَّ والكلُّ مُتَعَطِشٌ، ولذلك أرسمُ العِشْقَ والجميعُ ينتظرُ. وأنشدُ الهوى قصيدةً على بحرِ الوِدِّ وعلى قافيةِ الوردِ.

يا ذاك الشّهمُ الفارسُ، أريدُكَ على فرسٍ بيضاءَ قادمًا، وأتمناكَ برِدائِكَ الفَضْفاضِ، مُختالًا ومعكَ الفَخْرُ والعِزُّ وسيفُكَ شاهرٌ شرقيٌّ. أهواكَ عربيًّا، أُحِبُّكَ وأَعْشَقُكَ بطلًا من تاريخٍ يُشْبِهُ قُوتَكَ، ومن حاضرٍ بكَ يَتَجَمّلُ ومن مستقبلٍ معكَ ينتصِرُ.!

أناديكَ في اليقظةِ؛ فأراكَ في أحلامي وأحكيكَ في المنامِ؛ فتكونُ أمامي. يا رجلاً يغزو قلبي وعقلي ومعه الكونُ بَسَماتٌ أصيلةٌ وصِفاتٌ كالبراعِمِ تَتَفَتّحُ. خذني إليكَ؛ فمعكَ الكوخُ قصرٌ، والفَقْرُ غِنًى، ورُدّني إليكَ راغبةً أنا... يا لِسَكَنٍ في عينيْكَ ويا لراحةٍ من عرينِ أتعابِكَ. فلا يُمْكِن أن تكونَ البطولةُ والفروسيّةُ والانتصاراتُ مجردَ كلماتٍ تَخُطّها عربيّةٌ تُتَرْجِمُ لها بناتُ أفكارِها الأملَ والطّموحَ والرّجاءَ. عليكَ مني؛ فأنا العربيّةُ الشّرقيّةُ الحالمةُ وأنتَ المُنْتَظِرُ الآتي بقلمي ومن وراءِ دُواتي.

أجابَتْهُ لوليا:

"جلالةُ المَلِكاتِ سُلْطاناتُ خيالاتي، ورودٌ وأزهارُ أحلامي ويا كريماتُ أفكاري،أسْكُنُ معكُن وقلمي في محابِرِ الحبّ والحنينِ، أجولُ معكُن في فضاءاتِ العُمُرِ والسّنينَ. أَتَعَطّرُ برَياحينِ الرّبيعِ وأَتَجَمّلُ بأبجديةٍ عَرَبيّةٍ وأمضي فارسةً فوق أصيلةٍ: وَقْعُ حوافرِها في الصّحارى، وصهيلُها في المدائنِ، شاهرةٌ سيفًا يَمْلَأُ السّطورَ كلماتٍ ومُعَلّقاتٍ وقصائدَ عِشْقٍ وهوًى.

فوقَ القِلاعِ، أنا وفي الميادينِ وساحاتِ الوغى ووراءِ المنابرِ وبين أروقةِ الذّكرياتِ أسيرُ ومعي صُوَرٌ مُلَوّنةٌ بأزهى حلةٍ وحولُها إطاراتُ الفَرَحِ والسّعادةِ والسّرورِ والحبورِ.

ولو نَزَلَتْ فوقَ وَجَناتِ الدُّجى قطراتُ النّدى ورَطّبَتْ وَجْهَ الصّبحِ بشذا الوردِ ورَمَتْ فوقَ الشّجرِ غيماتِ نيسانَ وشاحًا رائعًا وجميلًا. تبقين، يا كنوزي وثرواتي، مكاني وزماني وكلَّ نبضاتِ قلبي وأعماري. أنتن مدادٌ وينابيعُ وكونٌ فسيحٌ.

تكفيني منكن شذراتٍ وعَبَراتٍ تملأني رضًا وشَغَفًا وشعورًا لا يَقّدّرُ بثَمَنٍ ولا تُعادِلُهُ جواهرُ ومالٌ ونقودٌ.

دُمْتُنّ لي نسماتٍ عليلاتٍ، ونَجماتٍ لامعاتٍ وشمسًا ساطعةً وبدرًا في كلِّ لحظاتِه وأنوارًا وأضواءً،لا تُطْفَأُ أوتزول...

ويقولُ سامي: "وطن النّجومِ، ومن محاسنِ الوجودِ ومن كراماتِ السّجودِ، بَنَيْتُ لي مكانًا أَتَعَبّدُ فيه بعيدًا عن ضجيجِ الأوجاعِ، وأَتَفَرّدُ فيه بجِوارٍ مع الذّاتِ، هُويتي أبجديةٌ وحدودي امتدادٌ لامتناهٍ! اذكرْني أيّها الجبلُ بقممِكَ المرتفعةِ كقصيدةٍ يُنظّمُها شجرٌ دائمُ الخُضْرةِ، قويٌّ يَتَحَدّى العواصفَ ونوائبَ الدّهرِ، وضُمَني إلى شطآنك أيّها الأزرقُ مثل موجةٍ هادئةٍ تُداعِبُ الرّمالَ اللّاهبةَ. ويا مدينتي الفاضلة، دعيني أَعُبُّ من شوارِعِكِ عَبَقَ الزّهرِ وأَتَنَشَقُ من شُرُفاتِ منازِلِكَ أزكى العطورِ، لا أتواضعُ فأنا في حضرةِ الجمالِ، هنا وبكلّ غرورٍ وطنِ النّجومِ.

فوقَ تُرابِكَ، انطلَقْتُ ومعكَ نَشَأْتُ وبِكَ كَبِرْتُ وتَرَعْرَعْتُ غيرَ مبال ببشاعةِ الهجرةِ ولا مُدْرِكَ لقباحةِ اللّجوءِ. وَضَعْتُ نُصْبَ عينيّ روعتَكَ وسِحْرَكَ وإبداعَ وَضَعُهُ الخالقُ بين حنايا وِجْداني أُتَرْجِمُهُ بلغةِ البيانِ.

أنتَ يا وَطَني، مَواطنوكَ كلماتٌ تتلألأُ في الظّلامِ وفي عَتَماتِ الحياةِ وفي اللّيالي. راحَتْ حواسي إليكَ كي تطلبَ اللّجوءَ وتنالَ شرفَ البقاءِ.

وعندما دَخَلَتِ الأخواتُ الثّلاثُ قُطِعَ الحوارُ الأدبيّ الإنسانيّ الاجتماعيّ، ورَجَعَ كلٌّ منهما إلى أرضِ الواقعِ وإلى تَقَبّلِ الأمورِ بمحبةٍ وإلى قليلٍ من البساطةِ ورَغَدِ العيشِ بين العائلةِ المُرَكّبةِ... واجتمَعْنا بعد انقطاعٍ هو الرّبيعُ، فمعكم تُزْهِرُ الورودُ وتَنْبُتُ الثّمارُ وتَهُبُّ النّسماتُ الفَوّاحةُ بأزكى العطورِ، أحبائي.

اليوم نجتمعُ على الخير في الحفلِ السّنويّ للدّارِ، نحتفِلُ بكلّ مقيمٍ ومن كلّ الأعمارِ يتعايَشون بسلامٍ وينعمون بالطّمأنينةِ والأمانِ، وبالتّالي هنا المنزِلُ والْمُنْتَزهُ والمكانُ الأمثلُ.

أُحَيّيكُم جميعًا وأُحِبُكُم وأَشُدُّ على أيديكُم وأَشْكُرُكُم. لقد نَجَحْنا في إرساءِ مركزًا لكلّ مَنْ تَرَكَهُ أهلُهُ وكان مصيرُهُ الشّارعَ يومًا ما وأُهْمِلَ في زوايا الحياة. في هذا المركزِ مؤسسةٌ تَجْمَعُ الكلَّ على المحبةِ والخيرِ.

ندعوكم لتتحادثوا معهم وتُشارِكوهم فَرَحَهم وسعادتَهم. ها هي وجوهُهم مبتسمةً وملامِحُها موشمةً بالحبورِ الذّي يغطّي البؤسَ والتّجاعيدَ ووسخَ الأيّامِ التّي خَلَتْ.

تفضلوا إلى الموائدِ؛ هي للرّحمنِ أولًا وأخيرًا وثوابًا عن الرّسولِ عليه الصّلاةُ والسّلامُ، والذّي بُعِثَ لِيتمّمَ مكارمَ الأخلاقِ. بسمِ اللهِ نبدأُ ونَشْكُرُه على اجتماعِنا وعلى إطعامِنا وارتوائِنا من غيرِ حولٍ لنا ولا قوة.

أهلًا بكم فردًا فردًا، كلّ واحدٍ منهم على طريقتِهِ ينعمُ بنِعمةِ العطاءِ: كلمةً أو مالًا أو سلامًا أو ابتسامةً، كلّها صدقاتٍ وبها نطفىء نيرانَ الدّنيا ونبتعدُ عن جهنّمَ.

الجمعُ يتسامَرون ويضحَكون ويفرحون ويأكلونَ ويشربون. قاموا بتشغيلِ الموسيقى وبدأ العجائزُ والكهولُ والشّبابُ والصّغارُ بالرّقصِ والدّبكةِ؛ أجواءٌ لا تُشْبِهُ إلّا عرسًا كبيرًا في مملكةِ الفرحِ.

شقيقاتي، الحمدُ للهِ لقد كان احتفالًا رائعًا بحضوركن! ومعكَ، يا سامي، كلُّ شيءٍ جميلٍ وساحرٍ، بارَكَ اللهُ بجهودِكَ وحَفِظَكَ لنا ولِلدّارِ فأنتَ حقًّا نِعْمَ الأخُ لنا جميعًا.

لا تَنْسَوْا اجتماعَنا الشّهريّ في بيتِ الأهلِ الأكارمِ، استعدّوا للخسرانِ بالورقِ؛ أريدُ أن أربحَكُن فلا تُتْعِبْنَ أنفسُكُن وارتفعتْ حماسَتُهُن وصَرَخْنَ بفمٍ واحدٍ: " لِنَرَ مَنْ سَيَخْسَرُ، أيّها المُغْتَرُ الكبيرُ! بالانتظارِ في اليومِ المعلومِ. لا تَنْسَ الحلوى اللّذيذةَ، أشتاقُ إلى مذاقِها جدًا.

قَهْقَهَ سامي وأردفَ: " والرّيجيم؟!!!"

ردّتْ لوليا: "معكم تُرْفَعُ الأنظمةُ، وتحلو لي الفوضى والمُشاكسةُ. إن شاءَ اللهُ نلتقي على خيرٍ، وداعًا إلى حين. أُحبّكم أخواتي وأحبّكَ سامي، أيّها الحنونُ والشّاب القويّ".

ورَجَعْتُ إلى نفسي أَسْتَرْجِعُ رصانتي وأُعاوِدُ أعمالي وأُمارِسُ نشاطاتي؛ فأنا أيضًا مسؤولةٌ عن مجموعةٍ من النّسوةِ وعوائلِهن وأحاولُ مع فريقِ عملي مُساعدتَهن وإيجادَ أعمالٍ لهن كي يَخْرُجْنَ ممّا كنّ عليه من عذاباتٍ وقَهْرٍ وحُزْنٍ ووَجَعٍ.

أنا وسامي حَرّفْنا مسارَ النّقمةِ إلى نعمةٍ والكراهيةَ إلى محبةٍ وبَنَيْنا الخرابَ وزَيّنا قِصَصَنا بعناوينَ إنسانيّةٍ تُفيدُ كلَّ نَفْسٍ ذاقَتْ وَبالَ أمرِ الحياةِ الصّعبةِ، وذَرَفَتْ بَدَلَ الدّمعِ دماءً!

الحمدُ للهِ على هذه النّعمةِ؛ فكلُّ ابتسامةٍ في وجهِ مُعَذّبٍ تُساوي كنوزًا وكلُّ وُسومِ الرّاحةِ في قلوبِهم تُقَدّرُ بالملايين من مالِ المُلوكِ وخَزَناتِ القُصورِ.

صُدْفَةً التَقَيْتُ بشقيقٍ لم تَلِدْه أمّي، هو أخٌ حقيقيٌّ على كثيرٍ من المُنعَطَفاتِ والمواقِفِ والدّروبِ والسّاحاتِ وكلّ الأمكنةِ. وفي جلسةِ صفاءٍ ومَحبةٍ ووَفاءٍ وَوِدٍّ تَحادَثَ الشّقيقان الغريبان عن الأحوالِ، كلٌّ حسبَ موقِعِه وتَجْرِبَتِه ودارَ بينهما حوارُ الأجيالِ، رغم أنّهما من جيلٍ واحدٍ وواعِدٍ ويُرْتَجى منه قلبُ المقاييسِ وإرجاعُ الموازينَ إلى نِصابِها.

- لوليا: " هل تَعْلَمُ يا سامي كم كنْتُ غبيةً عندما كنْتُ أنظرُ مِنْ حَوْلي وأعتقدُ أنّي وحيدةٌ وسعيدةٌ، وأنّ كلّ ما يحيطني يدعو للذّهولِ ويقولُ لي:" انتبهي أنتِ حالةٌ ونكبةٌ ونكتةٌ من نِتاجِ عقولٍ باليةٍ وأفكارَ حطبيّةٍ وعاداتٍ متوارثةٍ!""
- سامي:" لا عليكِ يا أختي، رغم أنوفِهم جميعًا اليومَ نحن انتصرْنا وهَزَمْناهم أجمعين."
- لوليا:" معكَ حقٌّ، فيا سامي عنايةُ اللهِ وحدُها جَعَلَتْنا نقوى على ضَعْفِنا ونواجِهُ الحقيقةَ بعِنادٍ. صحيحٌ أنّي هنا لأفيَ بوعدي وأُلَخّصَ لكَ وأوجزَ أطروحتي، ولكن قبلها أَخْبِرْني عن الكَهْلِ الذّي نَطَقَ بعدَ حينٍ، ماذا قالَ وما به؟"
- سامي: " لقد صَعَقَني يا غالية، وبَلَغَ مني الوتينَ وأراقَ مني الدّمعَ وذَرَفْتُ منه السّعيدَ والحزينَ .كانَ يُعالَجُ وقَطَعْتُ عليه خَلْوَتَه، لقد

اتصلوا بي وقرّروا أن يُوقِفوا علاجَهُ وجَلَساتِه. قلتُ في نفسي أَحاوِلُ وللمرةِ الأخيرةِ، عساني أجعلُه يُحَرّكُ ساكنًا ويحكي ويروي ما شَغِلَهُ وأَتْعَبَهُ وعَقَدَ لِسانَهُ وأَبْطَأَ نبضاتِ قلبِهِ وصارَ كارهًا للحياةِ وغيرَ مُتفاعِلٍ مع رِفاقِهِ في دارِ العَجَزةِ؟ أَلْقَيْتُ عليهِ التّحيةَ وأَخْبَرْتُهُ عني وبصدقٍ، حكيتُ له عني وعنكِ وعنا، ودون أن أُبْدِيَ رأيًا أو أُشْعِرُهُ بمكنوناتي أو دواخلَ نَفْسي .شيئًا فشيئًا بَدَأَ يَتَأَثّرُ ويَتَفاعَلُ ونَطَقَ الصّامِتُ الكبيرُ وبصوتٍ أَجَشٍ، وبَعْدَ أن أَجْهَشَ بالبكاءِ وهَدَأَ وتَكَلّمَ... وفي حَديثِهِ حِكَمٌ؛ كيف أنَّ الدّنيا تُنْذِرُنا يومًا بعد يومٍ وتُضَيّقُ علينا الخِناقَ وتُحاوِلُ المصائبُ أن تُذَكِرَنا دومًا بساعةِ الرّحيلِ مهما كنا أو سنكون.

تَصَوّري في موقفٍ مُؤَثّرٍ قالَ أنّ أحفادَه اجتمعوا حولَ والدِهم يطلبون أغراضًا لهم يَحتْاجونها؛ فوَعَدَهم ابنُه بجَلْبِها. وما كانَ من الكهلِ إلى أن تَقَدّمَ في معمعةِ الأولادِ وحاولَ أن يتكلّمَ فصَرَخَ الابنُ والكَنّةُ: " هل أنتَ وَلَدٌ صَغيرٌ!؟ أم أنّكَ تَغارُ من أحفادِكَ؟ ماذا تَنْتَظِرُ وما الذّي تُريدُه؟" خَجِلَ واحمَرّ وتَقوقَعَ في زاويتِه في غرفةِ أبناءِ ابنِه وبكى. هو فقط حاوَلَ أن يقولَ لابنِهِ أنّ قميصَه له قبةٌ مُهْتَرِئَةٌ ورفاقُهُ في القهوةِ يُعَيّرونَه؛ لذلك يَجِبُ أن تَأْخُذَه، يا ابني، إلى الخيّاطِ لِيقْلَبَ القبةَ لي! فما لقيَ آذانًا لا صاغية ولا مستمعة ولا دعوه يتكلّمُ. بكى ونامَ وبَقِيَتْ قبةُ القميصِ مُهْتَرِئَةً حتّى التقينا به وجاءَ إلى هنا .وأَرْدَفَ قائلًا:" حتّى الطّعامَ، يتركوا لي ما تبقى عنهم وأَجْلِسَ مُنْفَرِدًا على الشّرفةِ بحُجةِ الهواءِ وأَتَنَشَطُ وأَرْتاحُ، ولكنّهم سَهَو عن أنّ الموائِدَ خيرُها في كثرةِ الجالسينَ حولَها.! الحمدُ لله هي الدّنيا فانيةٌ؛ دَيْنٌ نُؤَدّيهِ ودَيْنٌ نَدْفَعُهُ.ماذا تَنتظرين من قومٍ لا يَتّقُون الدّينَ ولا يُمارِسونَ التّعاليمَ، إلّا وِفْقَ أهوائهم.! أين البِرُّ بالوالديْن؟ وأينَ الإنسانيّة؟

- لوليا: : فعلًا حالتُهُ جدُّ مُحزنةٍ. المهمُ أنّه اقتنعَ بجلساتِ العِلاجِ، وفَضْفَضَ وخفّفَ مِن ثِقْلِ هُمومِهِ وتكلّم. أَحْسَنْتَ يا سامي، واللهِ إنّكَ لَبَطَلٌ.

- هكذا قالَ لي المُعالِجُ وأثنى عليّ وطَلَبَ مني أن أَحْضُرَ معهم دائمًا. وعدْتُه أنّي سأعمل جهدي وأنّظمُ وقتي فمرافقتي له لن تكون على حسابِ عملي.
- لوليا: : لو تَعْلَمُ ما نُلاقيهِ، ونُصادِفُهُ من صعوباتٍ وأُناسٍ مَظْلومينَ وظالِمينَ على حدٍّ سَواءٍ، والله يأتي عليّ المساءُ وأنا أَتَخَبّطُ في أفكاري وكيف سأُقَدّمُ المُساعدةَ للبعضِ أو كيف أَمْنَعُ البَعْضَ من القيامِ بأفعالٍ شنيعةٍ وغيرِ ملائمةٍ وليسَتْ صحيحةً . اسمعْ، سأتلو عليك موجزًا مُهِمًّا من أطروحتي. لو كانَتْ حبيبتي حيّةً، لكنْتُ أسعدَ خلقِ الله كلّهم ولكنّه الموتُ والحمد لله. اسمعْ يا أخي، ولا تَمِلَّ من كلماتي وأريدُ منكَ تصويبًا ومناقشةً، وأرجو ذلك فلا تُهملْ حَرْفاً"ولا تتركْ كلمةً أرجوك، يا سامي يهمُّني وجودُكَ بجانبي وأحبُّ مشاكساتِكَ، فلا تبخلْ بها عليّ

بسمِ اللهِ وبه نستعين.

" مُلَخَصُ دراسةٍ شاملةٍ عن واقعِ المرأةِ المُعاصِرةِ وعِمادِ المجتمعِ "العائلة" وكيف يكونُ الرّجلُ المُلْهِمَ والسّندَ والمُحَفّزَ والأمانَ؟"

- **عنوانها**: "برّ النّساءِ المُلْتَزِماتِ بشَرْعِ اللهِ و وُدّ الرّجالِ القوّامينَ عليهن بالحبّ والإيمان".

والبدءُ عني، طفولةٌ رائعةٌ كالنّسيمِ وكلّ ما حولها يَتَشَبّهون بالملائكةِ والمحيطون بها مُحِبّين يرجون فرحَها ورِضاها وحمايتَها. ولمّا صارَ العقلُ رشيدًا، شَعَرْتُ بنَفْسٍ تَلُحّ على أسئلةٍ جَمّةٍ لا أجوبةَ عليها. وفَرَغْتُ من كثيرٍ من الرّضا وتَرَكْتُ ورائي كلّ صدًى لِما تَعْتَلِجُ فيه ذاتي، ورَكّزْتُ على رؤيةِ هلالي وهو يَكْبُرُ ويُنيرُ ومِلْتُ نحو اليمينِ، وعالَجْتُ كلّ أموري بإيجابيّةٍ عظيمةٍ، ولو مَحَوْتُ حُزْني بضحكاتِ الزّمانِ، ومَسَحْتُ دمَوعِ وجنتيّ بابتساماتِ الأيّامِ، وأَكْمَلْتُ مسيرتي وعزّزْتُ إنسانيتي وكلّ هذا بفضلِ اللهِ الذّي وَهَبَني أمًّا صالحةً ومُرْشِدَةً روحيّةً كانت تَدْعَمُ مسيرتي على مرّ السّنينَ.

وسأُحَدّدُ نقاطًا وأُكَبّرَهَا كي تظهرَ حقيقتُها وأستطيعَ إيصالَ ما أريدُ لكلّ مَنْ يَقْرَأُني ويستمعُ إلى كلماتي؛ والمِحْوَرُ: " المرأة المعاصرة"...

المرأةُ المعاصِرةُ، نعم! ولن أنتظرَ مؤيّدًا ولن يُؤخّرَني ناقدٌ ولمّا يُحْبِطْ عزيمتي جبّارٌ جَلمودٌ.

تفتّقَتْ عبقريتي، وبشهادةِ الأساتذةِ، عن حقيقةٍ ساطعةٍ وهي أنّ المرأةَ اليومَ بلا عنوانٍ، ولِلأسفِ بلا تعاضدٍ أوتعاونٍ. هي الشّريدةُ والمسجونةُ، وهي المُنْطَلَقةُ والخَلوقةُ، وهي الفانيةُ قَسْرًا والمهملةُ حَصْرًا، هي الضّعفُ والوَهَنُ، وهي القاسيةُ كالصّخرةِ التّي تَتَفَتّتُ، وهي التّي شلوا يمينَها ورَبَطوا يَسارَها، وأطلقوا لسانَها وأسرفوا في إظهار عيوبها، ولَخّصوها بالعُهْرِ والعُرِيّ والنّعراتِ الغرائزيّةِ، وصَدَقَتْ مَقولةُ المُساواةِ والحُريةِ وجَرَتْ تَلْهَثُ وراءَ شُهرةٍ ما أو جمالٍ مُزَوّرٍ أو خِدْعةٍ قاتلةٍ، وسَقَطَتْ عنها مسؤوليةُ التّربيةِ والتّعليمِ والعَظَمةِ وانهارتْ وانهارَتْ بفضلِها المبادىءُ والأخلاقُ والقِيَمُ، ولوّنوا الواقعَ بألوانٍ لا تُشْبِهُ مُجْتَمَعَنا ولا تَمُتّ للمرأةِ بصِلةٍ.

الأمّ، والابنةُ، والجدّة، والخالةُ كلُّهن، إلّا مَن رحم الله، دَخَلْن في مُتونِ التّفاهةِ والنّقاهةِ، حتّى فَرُطَ عِقْدُ الطّهارةِ وتغيّرَ اسمُ السّترِ، وتَوَسّمَتِ الدّعارةِ في مُصطلحاتِ الفِعْلِ والكلامِ. لستُ جريئةً ولكن هكذا أرى واقعَها وأراها! وحتّى لا أظلمَ؛ فتسعون بالمئةِ منهن يَنْطَبِقُ عليهن وَصْفَ الشّاهداتِ على التّغيير: سَفَهٍ وجنونٍ ومُجونٍ.

الجارياتُ صِرْنَ عبيداتٌ وأَمَاتٌ لكلِّ صَرْعَةٍ وموضةٍ وحَدَثٍ في العالمِ. الأمورُ التّي لا تَعنينا صارَتْ مهمةً لهنّ والأمورُ التّي تُصْلِحُ حالَنا لا تمرُّ بالأذهانِ.

صِدْقًا دَمّرَتِ المرأةُ أواصرَ القُربى، ليس لِلعائلةِ فحسب بل لِلنّساءِ الصّالحاتِ في التّاريخِ ولكلّ ما يُشَذّبَ مجتمعَنا من الشّرورِ التّي أخذَتْنا إلى الضّلالِ وأَفْشَتْ فيما بيننا الفسادَ... لستُ قويةً، ولكن إن شاءَ اللهُ لن أنطِقُ بالهوى وإنّما قولي فهو عن يقينٍ ورغبةٍ في تحسينِ وضعِ المرأةِ بالذّاتِ؛ فإذا ما صَلُحَتْ تَصْلُحُ العائلةُ وبالتّالي يَصْلُحُ المُجتمعُ ونذهبُ نحو أمةٍ قال عنها المولى خيرَ

أمّةٍ. اتركي الشّكلَ وركّزي على وجودِكِ. اختاري مَنْ يُمْسِكُ يَدَكِ وتسيرينَ مَعَهُ وليس وراءه أو حتّى أمامَه، فتكونين إمّا مُسْترجلةً أو حيوانةً وأنتِ إنسانةٌ. ابني لكِ بيتًا وليس من الجدرانِ، وإنّما من الدّعواتِ والصّلواتِ والعملِ برضا اللهِ وخشيتِهِ في كلّ شيءٍ، لا تتركي ولدَكِ لخادمةٍ ولا لأمّكِ ولا لكائنٍ مَنْ كان. أعْطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه؛ للزّوجِ، والولدِ ولكلّ مَنْ لهُ عليكِ حقّ: من المعاملةِ الحسنى والجُهدِ العظيمِ والكلامِ الطّيبِ والتّحفيزِ على الوصولِ إلى مكانٍ فاعلٍ وُمؤثّرٍ؛ وبالتّالي يكونُ الوعي سلاحًا والعلمُ حياةً والتّقى أسلوبًا والحُبُّ مضمونًا. مهلًا، لقد كانَتْ مقدمتي النّاريةُ بمضمونِها السّلبيّ، في حديثِنا المُطَوّلِ عن بانياتِ المجتمعِ، ومنشآتِ الأجيالِ، نساء الأمّم عمومًا وأمّتِنا بشكلّ خاصٍ ومُرَكّزٍ

- **سامي:** حصّنّي نفسَكِ أختاه؛ فسوفَ تنهالُ عليكِ الشّتائمَ والبندورةَ
- **لوليا**: يا لكَ من سَنَدٍ! إن كُنْتَ أنتَ مَنْ يَجِبُ أن يقِفَ إلى جانبي، فماذا تَرَكْتَ للغيرِ!؟ وقَهْقَهَتْ وتابَعَتْ...

"**أهميّة المرأة**": تُعدُّ المرأةُ جزءًا لا يَنْفَصِلُ، بأيّ حالٍ من الأحوالِ، عن كيانِ المُجتمعِ الكلّيّ، كما أنّها مُكوّنٌ رئيسيٌّ للمجتمعِ؛ وقد تتعدّى ذلك لتكونَ الأهمّ بين كلّ المُكَوِّناتِ. وقد شَغَلَتْ المرأةُ عبر العُصورِ أدوارًا مهمّةً، وكانَتْ فاعلةً ونَشيطةً في وَضْعِ القوانينِ والسّياساتِ، وفي تَسييرِ حركةِ الحياةِ السّياسيّةِ. خَلَقَ اللهُ تعالى الجِنسيْنِ: الذّكرَ والأنثى ليُكّمّلَ كلٌّ منهما الآخر، حيثُ وفّرَ لهما كلَّ الأدواتِ والأساليبِ المُمْكِنةِ لانماءِ الحياةِ ونهضتِها على الأرضِ؛ فقد جاءَتِ الأديانُ السّماويّةُ لتُنظِّمَ علاقاتِهما وتَدْفَعَهما لبذلِ أقصى الجهودِ لتحقيقِ غايةِ اللهِ الذّي خَلَقَ الإنسانُ لأجلِها.

دورُ المرأةِ: في المُجتمعِ، يُعدُّ دورُ المرأة في المُجتمعِ كبيرًا جدًّا وذا أثرٍ بالغِ الوضوحِ، كما أنّه دورٌ حسّاسٌ جدًّا، وإنّ تحييدَ دورِها وابتذالِها واستغلالِ قُدُراتِها بشكلّ يفوقُ قُدرتَها واستنزافَها، يقودُ لضَياعِ المُجتمعاتِ وتَشتُّتِها وهدمِ الأُسَرِ وتقويضِ بِنائِها، وأبرزِ أدوارِ المرأةِ واسهاماتِها في الحياةِ والمُجتمعِ: الأمومة، يُعدّ دورُ الأمومةِ أهمّ الأدوارِ في حياةِ المرأةِ ودورًا أساسيًّا في قيامِ

المُجتمعِ والحضاراتِ والأمّمِ؛ فدونه لا يُمكن أن يكونَ لدينا علماءٌ وعُظماءٌ يمنحون الحياةَ التّغييرَ ويُساهمون في تغييرِ الواقعِ تغييرًا جذريًّا بما يُفيدُ الإنسانيّة كلّها. يَشْمُلُ دورُ الأمومةِ الكثيرَ من الأدوارِ الفرعيّةِ داخلَ مفهومِهِ، ومنها: الاهتمامُ بأفرادِ العائلةِ ومشاكلِهم، ومنحُ الدّعمَ العاطفيَّ والنّفسيَّ لأفرادِ العائلةِ، خاصّةً في أوقاتِ الشّدائدِ بتثبيتِهم واحتوائهم، والتّنشئةُ والتّربيةُ على المبادئ الصّحيحةِ والقِيَمِ المُجتمعيّةِ الحقّةِ، ويتعدّى دورُ المرأةِ كونه مجرّدَ تربيةٍ إلى كونِهِ إعدادًا لجيلٍ يستطيعُ التّعاملَ مع المجتمعِ، ويُحسّنُ قيمةَ العطاءِ يُفْهِمُها، فتقومُ المرأةُ بِرَفْدِ أبنائِها بالمَهاراتِ الاجتماعيّةِ كما تُوضّحُ لهم حقوقَهم وواجباتِهم. يُشارُ إلى أنّ هذه الأدوارَ هي في قمّةِ الأهميةِ؛ كونُها تُقدّمُ وتضمنُ الاستقرارَ العاطفيّ والنّفسيّ لأفرادِ العائلةِ، وتصنعُ منهم أشخاصًا مُتّزنينَ، وأصحابَ قِيَمٍ وأخلاقٍ ترفعُ المجتمعَ وتعلو به، ممّا يَنْعَكسُ على المجتمعِ ككلّ، تقديمِ الخدماتِ لأبنائِهِ بالمفهومِ الواسعِ. الأمومة مصطلحٌ يشملُ الكثيرَ من الأدوارِ التّي تقومُ بها المرأةُ، ومنها: العملُ في مجالاتٍ تَبْرَعُ فيها، والعِلْمُ المُناسِبُ الذّي يُخَوّلُها العَمَلُ بإتقانٍ. بالتعلّمِ والعملِ تستطيعُ المرأةُ توعيةَ النِّساءِ اللّواتي تَعَرَّضْنّ للإساءاتِ من قِبَلِ الرّجالِ، وتعليمَهُنّ حقوقَهنّ وتدريبَهن على مواجهةِ الحياةِ بأساليبٍ جيّدةٍ. و من خلال قيامِها بالأعمالِ الخيريّةِ وتخصيصِ جُزْءٍ من وقتِها لذلك، تُثْبِتُ المرأةُ امتيازاتِها وقدراتِها وسماتِها وشخصيتِها ونفسيتِها. إنّ قُدْرةَ المرأةِ العاطفيّةَ هي أعظمُ صفاتِها؛ ممّا يسُاعدُها على التّعاملِ مع بعضِ الحالاتِ التّي لا يستطيعُ الرّجلُ التّعاملَ معها: كالحالاتِ التّي تخصُّ النّساءَ وما يَتَعَلّقُ بهنّ من اضطهادٍ وتعنيفٍ لِقُدْرتِها ومهاراتِها في الإقناعِ والتّواصلِ والتّأثيرِ واستثارةِ العواطفِ؛ فالمرأةُ تستطيعُ أن تتولَى الكثيرَ من أمورِ المؤسساتِ والهيئاتِ الرّسميّةِ التّي تُعنى بالأمورِ الأُسَرِيّةِ والاجتماعيّةِ والحقوقيّةِ بكفاءةٍ. إنّ من أدوارِ المرأةِ التّي تفرضُها عليها المسؤوليةُ:

- أن تُسانِدَ زوجَها في وقتِ المصاعِبِ والشّدائدِ، فَقَدْ تُعينُه في الانفاقِ فتعملُ، وهذا ممَا لا يُعدُّ واجبًا عليها، إنّما تقوم به رغبةً منها في

مساعدةِ شريكِها؛ حيثُ إنّ المرأةَ هي مَنْ تَدْفَعُ الرّجلَ وتُحفّزُهُ لِيخطوَ للأمامِ.

- توطيدَ العلاقاتِ بين أفرادِ العائلةِ والمجتمعِ؛ فالمرأةُ تُشجّعُ عائلتَها على صلةِ الأرحامِ ومشاركةِ النّاسِ أمورَهم كافةً، ممّا يَنشرُ المحبّةَ والتّعاونَ، فتقومُ الأجيالُ على المبادئِ السّاميّةِ والقِيَمِ والمحبةِ والوُدِّ.

إنّ للمرأةِ دورًا كبيرًا في نَهضةِ المُجتمعاتِ؛ حيثُ لها حضورٌ واسعٌ، فهي بمثابةِ المُعلِّمِ والمُتعلِّمِ، وتُقْصَدُ ليُؤخَذَ العلمُ عنها. في إبداءِ الآراءِ والاستشاراتِ لها باعٌ طويلٌ وقدرةٌ على تقويمِ الزّوايا وتغييرِ الأشكالِ من أجلِ تحقيقِ الهدفِ المنشودِ، والتّاريخُ يشهدُ بالكثيرِ من الأمثلةِ التّي تُبيّنُ أهمّيةَ دورِ المرأةِ في النّهضةِ، والحاضرُ خيرُ دليلٍ على فضلِ المرأةِ في كافةِ الميادينِ؛ فنسبةُ مشاركةِ المرأةِ في صُنْعِ القرارِ في الدّولِ ترتفعُ، وليس صحيحًا أنّ وضعَ المرأةِ في الوطنِ العربيّ يَتَدَهْوَرُ ومشاركتَها غيرُ فعّالةٍ في اتّخاذِ القرارِ وصناعته! إذ أسهمتْ نِساءٌ كثيراتٌ في تَقَدّمِ المجتمعاتِ العربيّةِ وتَرَكْنّ بصماتٍ خالداتٍ وفي كافة المجالاتِ. لا تختلفُ المرأةُ العربيّةُ عن غيرِها من نساءِ العالَمِ في سعيْها إلى تطويرِ مجتمعِها، فهناك الكثيرُ من السّيداتِ العربيّاتِ اللّواتي تَرَكْنَ بصماتِهِنّ في التّاريخ، في مجالاتٍ مُتنوّعةٍ: من النّضالِ إلى الجمالِ، مرورًا بالعِلْمِ والرّياضةِ والفنّ. وكثيراتٌ فاعلاتٌ، ورائداتٌ وناشطاتٌ، وناجحاتٌ في أعمالِهن لا بل مُتَفَوِّقاتٌ، وطبعًا يوجدْ منهُن المشهوراتُ عالميًّا وعربيًّا وإعلاميًّا. ولكن الأغلبُ منهن غيرُ معروفاتٍ ولا يُعْتَبَرْن رائداتٍ ولا يُذْكَرْنَ أبدًا؛ مع العِلْمِ أنّهن يَرْمُزْن للتّوازنِ الذّي يَعْدِلُ الحياة وهن الصّمامُ الذّي يحفظُ المجتمعِ من الانهيارِ والضّياعِ؛ فمن ربةِ المنزلِ إلى الدّكتورةِ فما بينهما من مراكزَ ومواقعَ تَحْتَلُّها المرأةُ وتَتْرُكُ فيها آثارًا عظيمةً، تبدأُ من الأمومةِ إلى المديرةِ لكلّ الأمورِ، والقائدةِ لقطارِ العائلةِ الصّغيرةِ ولِعملِها ونشاطِها. فالمرأةُ اليومَ، بحقٍّ، ورغم مساوىءِ الأمورِ والمشاكلِ المُسْتَفْحِلةِ والفوضى المُسْتَحْدَثةِ، هي وَحْدَها القادرةُ على غربلةِ المواقفِ وتعديلِ الموازينِ وتسديدِ المقاييسِ والبثّ في الوجودِ نفحاتِ حنانٍ وحبٍّ ووُدٍّ ووِئامٍ. فسبحانَ الذّي خصّها بكمٍّ هائلٍ من العواطفِ والأحاسيسِ

والتّي تُتَرْجِمُها تحفيزًا لكلّ مَنْ حولها، ودعمًا ودفعًا إلى النّجاحِ والتّفوّقِ والوصولِ بالمجتمعِ إلى الأفضلِ!

تخيّلوا معي عالمًا بلا نساء، ماذا سيحصلُ أيّها العابثون بالأمن الاجتماعيّ، المُفْرِطون بحقوقِ النّساءِ، والمُقَصّرون في أداء الواجباتِ! حقيقةُ مجتمعٍ جامدٍ مُتَحَجّرٍ لا حراكَ ولا حياة؛ لذلك من أولى الواجباتِ استرجاعُ مكانتِها، وإكرامُها وصَوْنُها وبعيدًا عن العِراضاتِ الإعلاميّة والتّرويجاتِ الإعلانيّة، فهي المحفوظةُ، كما القرآن، ووُعِدَتْ بالجنةِ بوَعْدٍ من الرّحمنِ وحديثِ النّبيّ عليه الصّلاةُ والسّلامُ. ولا شك يا أيّها الملأُ العظيمُ التّكريمُ فرضٌ واجبٌ لهنّ وإهمالُهن لؤمٌ وتحريفٌ وتزويرٌ. قد أسمعُ مَنْ يَتَشَدّقُ بالقولِ، كقولهم أنّ سببَ الانهياراتِ الجَمّةِ الحاصلةِ لنا هو المرأةُ.! في مكانٍ ما الكلامُ صحيحٌ ولكن ليستْ هي مَنْ وَضَعَتْ نفسَها هناك؛ فالضّعفُ والوَهَنُ والإهمالُ من الأسبابِ. قوّوا عزائمَهُن وشُدّوا على أياديهن، وتوقفوا عن اعتبارهن مخلوقًا درجةً ثانيةً ومجرّدةً من الحضورِ، وخلفية الموضعِ وورائيةَ الظّهورِ.

هي الأولى، نعم ومع حواء أمّنا تَجَمّلْنا بماءِ الجنةِ وساندْنا سيدنا آدم وكنّا له المتكأَ والزّوجَ الولودَ والوَدودَ، ومُربيةَ الأبناءِ والنّاشرةَ في الأرضِ السّلامَ. ومَرَّ في واقعي نِساءٌ لا تُعَدّ ولا تُحصَى، ابتسامَتُهم صَدَقاتٌ وكلماتُهن حَسَناتٌ وأعمالُهن خيراتٌ. يَسْعَيْنَ لِلجهادِ بأسلحةٍ تُحيي ولا تقتلُ، تبني ولا تَهْدِمُ، تُفْرِحُ ولا تُحْزِنُ، تُشفي ولا توجِعُ. العِلْمُ والإيمانُ والمحبةُ والتّعاونُ والتّضحيةُ وإيثارُ النّفسِ والارتقاءُ والسّمو لِلوصولِ إلى أهدافِهن في مساعدةِ المُحتاجِ، ومدُّ يدّ العَوْنِ لكلّ ضعيفٍ ومَعوزٍ وفقيرٍ هي أهم الصّفات التّي تتسلّح بها النّساء؛ وبلا مقابلٍ أو أجرٍ إلّا من رب العالمين، تقوم بكل ما تقومُ به. ولا تسألوا ما هو السّرُّ الذّي يَجْعَلُنا نمضي قَدَمًا غيرَ آبهين بزَعيمٍ ظالِمٍ أو مسؤولٍ فاسدٍ أو دولةٍ هالكةٍ.
اليومَ نعيشُ في دولةِ الأمّةِ، ودولةِ النّاسِ ودولةِ العَوامِ ودولةِ الشّعبِ؛ وشتّان بين الحُكْمِ وبين المَحكومِ.

انقطعَتْ أواصرُ القربى وبات كلَّ واحدٍ من جهةٍ ولو كانا في ذاتِ البُقعةِ الجُغرافيّةِ المُنْتَهكةِ والمَسجونةِ في أنظمةٍ مُهْتَرِئةٍ قَديمةٍ والأمّةُ واعيةٌ تَتَقَدّمُ بكلّ حذافيرِ القوة، رافعةً الحريّةَ لها رايةً وغيرَ مُباليةٍ لا بِحروبٍ عَبثيةٍ مفروضةٍ ولا بضائقةٍ اقتصاديّةٍ مُفْتَعَلَةٍ، وكلّ هذا بفضلِ المرأةِ وقوتِها وعَمَلِها ومتانةِ علاقتِها بثقافةِ الحياةِ التّي تَغْرُسُ الأَمَلَ في الأبناءِ وتَزْرَعُ في قُلوبِهم شتى النّباتِ. ولسْتُ مِمَنْ يَقْسِمون الإنسانَ ويُطالبون بالمساواةِ، وذلك لأنّ النّساء لا ينتظرْن مساواة الدّنيا ؛ فإنّهن مُكَرّماتٌ بأمرٍ ربانيٍّ ومُحْصَناتٍ بِدُروعٍ تَجْعَلُ اليَباسَ أخضرَ والصّحاري حدائقًا غَنّاءً وتُفَجّرُ الينابيعَ وتَمْنَحُ الحياةَ. ولسْتُ من دُعاةِ الحريةِ لِلمرأةِ؛ لأنّها تَمْلِكُ في يمينِها الشّمسَ وتُديرُ في يسارِها العائلةَ والمجتمعَ والوَطَنَ وبالتّالي العالِمَ كلّه بثَباتٍ وتؤدةٍ وعَزْمٍ وإصرارٍ. لا تُنْجِبُ الأطفالَ فقط؛ ولكنّها تُنْجِبُ كلَّ دعائمِ الوُجودِ وتُفشي الإيجابيّاتِ وتُلَوّنُ السّوادَ وتروي الأيّامَ وتُزَيّنُ الزّمانَ.

هي الأمُّ والأختُ والزّوجةَ، والخالةُ والعمّةُ والجَدةُ، والابنةُ والحفيدةُ والجارةُ، والتّاليةُ والصّالحةُ والمرأةُ العتيدةُ. المرأةُ التّي تُعّنّفُ اليومَ تُمثّلُ وصمةَ عارٍ على جبينِ الإنسانيّةِ، وتَجْعَلُنا نهزأُ بالقوانينِ والأنظمةِ المَرْعَيّةِ الإجراءَ؛ فماذا يُفيدُ الضّحيةَ المُعَنّفَةَ، التّي دُفِنَتْ تحتَ التّرابِ، تجريمُ القاتِلِ والحكمُ عليه بالسّجنِ سنواتٍ وبعدها يمضي باختصارِ المُدةَ أو لسببٍ ما يتمّ إخلاءُ سبيله....

يَحْضُرني زمنُ وأدِ الفتياتِ، على الأقلِ، حينها، كانَتْ وليدةً وليست صبيةً ولا أمًّا ولا ناضجةً ولا مصونةً كبيرةً! ولسْتُ هنا بصددِ الدّفاعِ عن الجاهليّةِ ولكنّها مقارنةٌ بسيطةٌ كي نرى ما نحن عليه بالعينِ المُجَرّدةِ، فلسْنا بحاجةٍ إلى مُكَبّراتٍ. ما زالَتْ، يا سادة ويا سيدات، المرأةُ في مجتمعاتِنا ضعيفةً ووَهِنةً ويطلقون عليها أحكامًا وألقابًا شتّى تؤذيها وتُلْحِقُ بها الضّررَ المعنويَّ. وكانَتْ وصيةُ السّيدةِ، والدتي الغالية، أن أُساعِدَ كلَّ ذاتِ مُشكلةٍ وأَعينَها وأَمُدَّ لها يدَ العونِ ما استطعْتُ إليه سبيلًا.

فكانَتْ مؤسّسةُ الياسمينِ الخاصّةِ بالنّسوةِ المُهْمَلاتِ والمَتروكاتِ والقابعاتِ في زوايا النّسيانِ والمَظلوماتِ. فلا تَعنيني إعطاءُ جِنسيةٍ ولا يَهُمّني لأيّةِ جهةٍ

تنتمي الضّحية، تركيزي على إعطائِها ثِقَتَها بنفسِها، وبالعِلْمِ والعَمَلِ والتّحلّي بالصّبرِ والصّفاتِ الفضيلةِ.
ونِلْتُ شهادتي بامتيازٍ ومع مرتبةِ الشّرفِ. وأهدي نجاحي إلى مَنْ غَرَسَتْ في وجداني حبَّ الآخَرين وزَرَعَتْ في قلبي الأملَ وحَقَقّتْ لي حُلْميَ الكبيرَ، إلى التّي رَبّتْني ووَضَعَتْني معنويًّا وأَرْضَعَتْني الحُروفَ العربيّةَ مع الحليبِ وجَعَلَتْ لساني قويمًا وكلماتي دُررًا وحِكَمًا...
ما زِلْتُ أعيشُ عمري مُناصَفةً مع مُذكراتِكِ ومع عَمَلي في المُؤسّسةِ وأُوازِنُ بينهما؛ فكلاهما يُكَمّلُ الثّاني وهكذا أحيا: لا أهابُ الحُفَرَ ولا أخشى المُنْزَلقاتِ وكلّ الطّعناتِ هي دروسٌ لي وكلّ الصّفعاتِ جُرْعاتُ مناعةٍ ضدَّ الضّلالِ والفَسادِ. وصِرْتُ قويّةً، وليس بمعيارِ الزّنودِ والرّهبةِ والفَزَعِ؛ صِرْتُ قَويّةً بإيماني بأنّ الخيرَ لا يزالُ على الأرضِ واللَّبِنةَ المفطورَ عليها ابنُ آدمَ لا تزالُ تَنْبِضُ مَحَبةً ورحمةً.
وبين يديّ أوراقي النّاصعةُ البيضاءُ وحتى كلماتُها تكادُ تكونُ لي نورًا في عَتَماتِ أيّامي وتزيدُني نصاعةً وألقًا وبريقًا. وهذا شُعورٌ داخليٌّ يجعلُ مني ابتسامةً على وجهٍ حزينٍ وفرحةً في ذاتِ موجوعٍ وكرامةً لدى كلّ محرومٍ وفقيرٍ.
وأنا اللّؤلؤة التّي هي مكنونةٌ ومنثورةٌ وفي كلّتي الحالتيْن محفوظةٌ منشورةٌ، تَعْكِسُ ما لديها من إيجابيّاتٍ على كلّ مَنْ حَوْلِها وتجعلُ من نَفْسِها ممحاةً للمآسي وريشةَ حِبْرٍ أزرقَ لكلّ الأفراحِ. هي التّي تُؤمِنُ قطعيًّا أنّها كقلمِ رَصاصٍ يَكْتُبُ ولا بُدَّ أن يَخْذُلُهُ النّسيانُ في يومٍ من الأيّامِ.
ومع أوراقِكِ الخريفيّةِ، يا أجملَ كنوزي ويا سندي في حياتك وملجأي في مماتِكِ، سوف يكتبني الفصلُ الأخيرُ من الرّوايةِ كما خَطّتْها يمينُكِ وبَرَعْتِ في رسمِ تفاصيلي التّي مازِلْتُ أجهلُ غالبيتَها وأكتشفُها معكِ كلَّ يومٍ؛ فيزيدُ حبّي لكِ أكثر وأكثر.
الأمُّ البديلةُ هي بمكانةِ الأمِّ الأصيلةِ، ومن غيرِ حساسيةٍ، تكادُ تَغْلُبُ الثّانيةَ لِتَتَرَبّعَ على عرشِ الأمّومةِ وتُنْجِزُ صِناعةَ الحياةِ الكريمةِ الفُضْلى لي ولأترابي، ولو بِبِنتِ شَفَةٍ أو سكونٍ أو صمتٍ أو حَركةٍ أو عَمَلٍ. وتقولين: " لن

أَكْتُبَ لكِ وصيّةً ولن أُسْهِبَ في توجيهِكِ؛ فأنا تَرَكْتُ لكِ المِقْوَدَ منذ كُنْتُ صغيرةً جدًّا. ولن أُشَدّدَ على التّعليماتِ ولا على التّوجيهاتِ؛ فطبعُكِ يَكْرهُ الفَرْضَ ولغةَ الأمْرِ، وأفهمُكِ وأستوعِبُ شخصيتَكِ الفذّةَ والمُتَمَرّدَةَ وذاتَ الطّباعِ الخاصةِ جدًّا. لذلك، يا لوليا، ما سوف تقرأينَه هنا مجردَ ثرثرةٍ وأحاديثٍ بيننا ووَشْوَشاتٍ وبعضَ الخلافاتِ حتّى لا ندّعيَ المثاليةَ والتّي هي أشدُّ كفرًا على الإنسانِ من الإلحادِ. فالـ"أنا" أخطرُ ما نواجِهُهُ اليومَ والمصلحةُ الفرديّةُ والتّقاتلُ على المراكزِ والمالِ والتّنافسُ على السّلطةِ والجاهِ وكلّها في سبيلِ " الأنا القاتلة".

اللهُ خَلَقَنا شُعوبًا، وهو وحدُهُ الإلهُ الواحِدُ ومع ممارسةِ الأنا، والعياذ باللهِ، نكونُ قد جَعَلْنا من أنفسِنا آلهةً عدّةً وتَتكاثرُ للأسفِ هذه الظّاهرةُ وتتعاظَمُ من الرّأسِ إلى القاعدةِ وما بينهما...

الفصل الحادي عشر
والنهاية البداية

لؤلؤتي الغاليةُ، تعلمين جيّدًا أنّ الإنسانَ ليس كاملًا وعنده الحسناتُ ومعه السّيئاتُ، والفوزُ بيسرِ العيشِ وراحةِ البالِ، يكونُ بتغليبِ الخيرِ على الشّرِ وبوضعِ نُصْبَ أعينِنا أنّ الميزانَ بضمائِرِنا وسائرِ دروعِ المواجهةِ في قلوبِنا وحتّى في عقولِنا ممكنٌ أن يكونَ حُلْمًا أو أمنيةً أو رسالةً، أو حتّى مُجرّدِ بطاقةِ عُبورٍ من الأولى إلى الآخِرةِ، وبين طَرَفَيْ الحياةِ شُروقًا وغُروبًا...

ولو أنّني رَحَلْتُ ولكن هي كلماتي لكِ لِلترفيهِ والإفادةِ معًا...

اكسري طوقَ اللّوازمِ الوضعيّةِ وحطّمي كلَّ الأعرافِ والتّقاليدِ وامتثلي فقط لأوامرِ الله وهَدْيِ الرّسولِ وقلبِكِ غيرِ المفتونِ وأفكارِكِ اللّؤلؤيّةِ، وأفتي قلبَكِ في كافةِ الأمورِ؛ فالقواعدُ وُجِدَتْ لِتُسَهّلَ أساليبَ العيشِ وتزيلَ الصّعابَ من المَمرّاتِ والأشواكِ من النّفوسِ واستبدالِها بالزّهورِ والوُرودِ والنّباتاتِ الضّوئيّةِ.

مُحَسّناتٌ لَفْظيّةٌ ومَلائكيّةٌ تُضْفي على الإنسانِ روحَ الفضيلةِ وتُنْثِرُ في رُبوعِهِ الأخلاقَ والمبادىءَ والأصولَ الآدميّةَ وليستْ الشّيطانيّةُ التّي نَظّمَتْها أيادي الجُهَلاءِ وعَمّمَتْها سيوفٌ فوقَ رِقابِ العِبادِ. هل تذكرينَ حكايةَ الطّفلةِ التّي نَالَتْ جائزةَ القراءةِ في دُبَي؟ وكيفَ كان رَدُّها على الإعلاميّ؟ وكم هي صغيرةٌ بعدد سنينِ حياتِها وكبيرةٌ في لغتِها وثقافتِها وقُدرتِها على استيعابِ الأمورِ كافةً ومنطقُها السّليمُ وإبداعُها وجمالُها وحسنُ حضورِها؟! من هنا تَبدأُ رحلةُ الألفِ لا بل المليونِ ميلًا وأكثر لِننجزَ مَهمتَنا، ونَصِلَ إلى جيلٍ مُحِبٍّ للغتِهِ العربيّةِ. تلك الطّفلةُ قرأَتْ من الكُتبِ الكثيرَ وليسَتْ قراءةُ وحسب، بل لَخّصَتِ الكُتُبَ التّي قَرَأَتْها ووَضَعَتْ ملاحظاتِها، وعندما ظَهَرَتِ النّتيجةُ لم تَتأثّرْ؛ فهي على ثقةٍ تامّةٍ بفوزِها ومع ذلك قالَتْ: " يهمُّني ما أنا عليه ولَسْتُ

معنيةً بالدّرجةِ ولا بالهديةِ كلّ الأمرُ أنّي قارئةٌ عربيّةٌ! والشّكرُ للهِ في عظيمِ خَلْقِهِ وتنزيلِهِ الكريمِ بلغةٍ بليغةٍ وفصيحةٍ، باختصارٍ هي البيانُ والسّحرُ!.

همساتي، يا حبيبتي الغالية، صِراخٌ قويٌّ ويا لؤلؤتي المنثورةُ ويا ابنةَ الزّمانِ المجيدِ، وكما تَعْلَمين ليس كلّ ما تقرأينهُ هنا بالضّرورةِ، يُلامِسُني شخصيًّا؛ فهي نَبَضاتٌ من المُمْكِنِ أن تكونَ صالحةً ومن المُمْكِنِ أن تكونَ للتّنفّسِ ولِمتابعةِ الحياةِ. من أشدّ المشاهِدِ قَسْوَةً على ذاتي والتّي تَجْعَلُني أَشْمَئزُّ من المجتمعِ الذّكوريّ، كما يصفونه، وتَأْخُذُني إلى مكانٍ خارجَ الأرضِ من شدّةِ القَهْرِ وكثرةِ الظّلْمِ.

عندما فَتَحْتُ البابَ، رأيتُها راكعةً تستجدي، وهو يَحْمِلُ الكِرْباجَ ويَنزِلُ على جَسَدِها الرّقيقِ الضّعيفِ، يُشْبِعُهُ ضَرْبًا. وفي يدِّه الثّانيةِ، يُغْلِقُ فَمَها كي لا تَصْرُخ ويُجْبِرُها على البُكاءِ بِصَمْتٍ وتتحَمّلُ الوجعَ وقَهْرَ الرّجلِ اللّئيمِ الذّي يُرَبّونَهُ على الفوقيةِ ويُعَلّمونَهُ كلَّ شيءٍ إلّا معاملةَ النّساءِ. فالتّعاملُ مع النّساءِ فَنٌّ لا يُتْقِنُهُ إلّا العالمون بشؤونِ الإنسانيّةِ والعارِفونَ بحدودِ اللهِ والمُتّقّينَ وأولئكَ الذّين يَعْبدون اللهَ حقيقةً وليس تَمْثيلًا أو مظاهرَ أو مراكزَ، وليس من أمورِ هذه الأيّامِ. إذ أنّهم مع الأسفِ، حَصَروا الدّينَ والشّريعةَ بالفرائضِ وتَناسَوْا آيّ الذّكرِ الحكيمِ وأقوالَ الرّسولِ الكريمِ، وحتّى غُمَّ عليهم أنّهن وصيةُ الرّسولِ وأنّ الجنةَ تحتَ أقدامِهن، وعاشوها بالأناشيدِ والأغنيّاتِ فقط. لِقساوةِ ما شَعَرْتُ به وأنا الفتاةُ الصّغيرةُ، ابْتَعَدْتُ عن كلّ الاجتماعاتِ من نساءٍ ورجالٍ... واتخَذْتُ لنفسي رُكْنًا لا يَطَأُه إلّا قلمي ودُواتي والأوراقُ... وشَغَلْتُ نفسي بالكتابةِ؛ فهي الوحيدةُ التّي بها أحيا وأكونُ امرأةً عن تصميمٍ وقرارٍ وبكلّ ما لها من حقوقٍ مهدورةٍ على عَتَباتِ العُلماءِ والسّاسةِ، ومن واجباتٍ أَرْهَقَتْها؛ فكلّما قامَتْ بها كلّما تَضاعَفَتْ وازدادَتِ المهامُ وهكذا تَرْزَحُ المرأةُ تحتَ عبءِ الحياةِ؛ فإمّا تَهْرِبُ وإمّا تُواجهُ وتَصْمُدُ وتُعانِدُ وتُبْرِزُ غَضَبَها بإيجابيّةِ العاقلاتِ؛ فهي لِلعاطفةِ نَبْعٌ ولِلحنانِ رَمْزٌ ولِلحبِّ عُنوانٌ.

صدّقيني يا لؤلؤتي المكنونة، والتّي صارَتِ اليومَ منثورةً تَلْمَعُ وتَبْرُقُ في عالِمِ النّساءِ، ولها كلمَتُها وتُنيرُ قناديلَ اللّيالي في العَتَماتِ. أنتِ الكنزُ الذّي ادّخَرْتُهُ لِلدّنيا والآخرةِ، وأنتِ التّي سَأَقِفُ معها يومًا ما لِنُخْبِرَ العالِمَ أجمع أنّ المرأةَ وَحْدَها هي الكونُ وهي مِحْوَرُ الوجود وليست المرأة التّي تطالب بالمساواةِ ولا هي التّي تَدّعي الاضطهادَ وتُمارِسُ الذّلَ وكلَّ أنواعِ العبوديّةِ للذّكرِ والعياذ بالله. إنّما المرأةُ هي التّي من الضّعفِ صَنَعَتِ القُوةَ، وبَنَتِ العوائلَ، وعَلّمَتْ ورَبّتِ الأجيالَ، وَغَرَسَتِ الفضائلَ في الأنفسِ، وصَوّبَتِ المِقْوَدَ نحو الاستقامةِ، وسَاعَدَتِ الأبناءَ على تخطّي الصّعابِ، ولَقّنَتْهم السّرَ في التّعاملِ مع أمورِ الدّنيا برضًى وثباتٍ، وفي استبدالِ الحُزْنِ بالتّهَجّدِ والأسى، وبالأملِ والبكاءِ بالعملِ... تلك هي المرأةُ التّي لا يُشبِهُها جمالٌ ولا سِحْرٌ ولا إنسانٌ؛ هي حواءُ، أختَ الرّجالِ، معها العالَمُ يَكْتُمِلُ والحياةُ تكونُ على ما يرام.

يا لؤلؤتي، اللهُ الخالِقُ لِلوجودِ، جَعَلَنا مِحْوَرَ الكونِ وكَرّمَنا وتأتي كراماتُ العباءاتِ واللّفاتِ ومُدّعو العِلْمَ ومُنْتَصِفو الحِكْمةَ لِتَجْعَلَ منها كائنًا ومَنْقوصًا ومُلْحَقًا للرّجلِ، مع أنّها هي الأساس! المرأةُ التّي نريدُ أن تكونَ اليوم لا تُشْبِهُ ملكاتِ الجمالِ ولا مذيعاتِ التّفاهاتِ ولا عارضاتِ الأزياءِ...

المرأةُ التّي يجبُ أن تكونَ، هي التّي مضمونُها بناءٌ ومحبةٌ، ولو كانَتْ هي الحُسْنُ والجمالُ ولا يَنْقُصُها عقلٌ أو دينٌ يا أنصافَ الرّجالِ. وكلّمتي لِلذّكوريينَ من الرّجالِ والنّساءِ، الحَلُّ يَكْمُنُ في عِلْمِكِ وخِبْرَتِكِ ومعهما عَطْفِكِ وحَنانِكِ وليس بِجَعْلِكِ داعشيّةً أو من الغواني؛ فالتّطَرّفُ لا يَمُّتُ إليكِ لا بِصِلَةٍ ولا بقرابةٍ، أنتِ يا سيدةَ الكَوْنِ صمامُ الأمانِ لِلوجودِ. وأنتِ شمسُ الكونِ، تُنيرينَ القُلوبَ وتَبنينَ العُقولَ؛ فلا تتنازلي عن هذا الحَقِّ الذّي هو هبةٌ لَكِ من اللهِ، لَكِ وَحْدَكِ ولا يُشارِكُكِ به مَخلوقٌ. حتّى لو جَاوَرَ الرّوحَ أو عاشَ قُرْبَ القلوبِ...

صِدْقًا يا حبيبتي، يا لؤلؤتي ويا ابنتي الجميلةَ ويا ابنةَ الزّمانِ، لسْتُ من هؤلاءِ الذّين يَشْعرون بانتقاصٍ أو إحباطٍ. كلّما تَمَعّنْتُ بتفسيرِ القرآنِ كلّما ازددتُ قناعةً بأنّ رجالَ الدّينِ مُقَصّرون وحاجزو الاجتهادِ ويُفتونَ وِفْقَ ضيقِ نُفوسِهم وعُقولِهم وبحسبِ أهوائِهم إلّا ما رَحِمَ ربّي.

يدّعون أنّ كلّ شيءٍ حرامٌ، نَفّروا المسلمينَ من دينِهم فبِتنا من الانحدارِ قابَ قوسيْنِ وفي الانحلالِ تائهون. وأكثرُ الأمورِ خطورةً تهميشُ لغةِ القرآنِ والتّي هي عظيمةٌ وإنّي أَجْزُمُ أنّها لغةُ الحياةِ بشموليتِها وليس حصرًا بالدّنيا تَتَخَطّى المكانَ والزّمانَ. لغتُنا التّي جَعَلْناها مَصْدرًا لِخَجَلِنا من حالِنا؛ فبتنا نَتَشَدّقُ بكلّ اللّغاتِ ونَكْتُبُ حتّى بالحروفِ اللّاتينيّةِ والكرشونيّةِ ونَبْتَعِدُ عن أبجديتِنا كما ابتعدْنا عن ربِّنا. وحتّى لا أُثْقِلُ وَقْتَ الرّاحةِ لديكِ بكلماتي الكبيرةِ المعاني، سوفَ أَخُطُّ لكِ أوراقي الخريفيّةَ تعيشين فيها بَعيدًا عن العَمَلِ وتسرحين بجمالِ الصّورِ وتَدْخُلين معي بجدالٍ آخِرُه ابتسامةٌ عريضةٌ وحُلْمٌ عظيمٌ وغَفْوَةٌ ملائكيّةٌ.

حُرُوفي، تارةً، تَأْخُذُنِي إلى اللّوْنِ الأَبْيَضِ وتاراتٍ إلى اللَّوْنِ الأَسْوَدِ مُسْتَفِيدَةً مِنْ وَضَحِ النَّهَارِ وَسُطُوعِ الشَّمْسِ وَمِنْ عَتْمَةِ اللَّيْلِ وحلكةِ الظَّلَامِ... وَأَحْيَانًا تَأْخُذُنِي إلى الطَّيْفِ بِأَلْوَانِهِ المُخْتَلِفَةِ مُسْتَمِدَّةً مِنَ الزُّهُورِ تَأَلُّقَهَا وَتَنَوُّعَهَا وَجِمَالَهَا؛ فيتَّأرجحُ إِلْهَامِي فِي الفَضَاءِ عُلُوًّا وَاِنْخِفَاضًا، كَأَنِّي كَوْكَبٌ يَبْحَثُ عَنْ رُكْنٍ لَهُ فِي المَدَى... وَلَا يَلْزُمُنِي سِوَى حَوَاسٍ لَا تُشْبِهُ الحَوَاسَ، يَلْزُمُنِي عُيُونٌ وَآذانٌ وَمَشَاعِرُ لِلنُّفُوسِ كَيْ تُتَرْجِمَ نَبضَاتَ قَلَمِي وَكِي تُحَدِّثَ عَنْ أَحْوَالِي...

مِنْ صَمْتِ المَلَائِكَةِ أَسْتَعِيرُ حَرَكَاتِي وَسُكُونِي، وَمِنْ حِكْمَةِ الأَتْقِيَّاءِ أَتْنَشَقُّ شُجُونِي وَمِنْ بَرَاءَةِ الأَطْفَالِ أَسْتَمِدُّ رَوْعَةَ أَحَاسِيسِي...

حُرُوفي وَطَنِي وَجَنَّةُ أَحْلَامِي. أَمْتَطِي قَلَمًا سَاحِرًا وَأَتَنَقَّلُ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَفِي مدادِ الكَوْنِ الفَسِيحِ، لا يَلْزُمُّني عدةٌ أو نقودٌ أو كنوز؛ يكفيني نسيمٌ وشجرٌ وجدولُ ماءٍ ومعها عصافيرٌ تحلِّقُ وتزقزقُ وفراشاتٌ تتنَّقلُ بيْن الزُّهورِ

ونحلاتٌ ترتشفُ الرّحيقَ كي تُحَفِّزَ قلمي ويرتَشِفَ مِنْ معينِ الحُبِّ والحياةِ إلهاماتِه وخيالاتِه وإبداعاتِهِ. وتتساقطُ فوقَ سطوري حروفٌ ترْوي حكاياتٍ عن المظلومين وعن العُشّاقِ وتُنَظِّمُ أشعارًا في المديحِ والفَخْرِ والرِّثاءِ، ولِوَقْعِها دلالاتٌ وعلاماتٌ تُبَشِّرُ بحلُّولِ فصلِ الإبداعِ. وهكذا تكونُ الحياةُ: قلمٌ وفكرٌ ودُواة. هل أجملُ من حياةٍ مع حباتِ مَطَرٍ تُعانقُ أزهارَ الياسَمينَ وأوراقهِ وتعطِّرُ الكلماتِ وتَبْعَثُ في الأجواءِ السّعادةَ والفَرَحَ والهناءَ. يا رجاءَ الْحنينِ ويا قواريرَ الذّكريَّاتِ، يا حروفًا غنيّةً بالمشاعرِ السّاميّةِ، ومُفْعَمَةً بالأحاسيسِ السّرمديّةِ، أتحِفي أوراقي بأخبارٍ وأحداثٍ، تحظى برِضَى اللُّغةِ العَرَبِيِّةِ، وبجمالِ الفصاحةِ الأدبيَّةِ وببَلاغَةِ المعانِي الإنسانيَّةِ. تفيضُ مُخَيِلَتي بِأبجديةٍ تُلامِسُ الشّمسَ وتغوصُ في الأرضِ. وحانَ وقْتُ التّجلي والرّحيلِ إلى كَوْكَبٍ يجاوِرُ الأرْضَ ويُشْبِهُ المرّيخَ....

أيُّها الْحزينُ، حلِّق في الْفضاءِ، مُفتّشًاعن الوَليفِ، ريشاتُه ملوَّنةٌ وعيناهُ مُكَوَّرةٌ، وفَوْقَ رأسِهِ تاجٌ، ومِنقارُهُ مُحْدَوْدَبٌ، وتَغْريدُه يُطْرِبُ الأصمَّ، ويُزيلُ عنْ النَّفسِ الألَمَ، ويُزَيِّنُ الغُيومَ، ويروي ظَمَأَ الرُّوحِ، ويَشْفي القلبَ المجروحَ، ويُزيلُ عن المريضِ الوَجَعَ. وعند الْلّقاءِ، يزولُ عنْكَ الحُزْنُ، ويَنْقَلِبُ إلى فرحٍ، فَتُزَقْزِقُ وتُرَفْرِفُ وتنشدان معًا أغنيةَ الحُبِّ كي يَكْتَمِلَ القَمَرُ.

تَسْكُرُ الأزهارُ مِنْ قَطَراتِ النّدى، وتَتَرَنَّحُ وتَتَمايَلُ ويَفوحُ عِطْرُها، ويَمْلأُ حَفيفُها الأرْجاءَ، وتَتَأَرْجَحُ الأَغْصانُ راويةً حكايا السَّمَرِ. بيْنَ الغَسَقِ والشَّفَقِ، ليلٌ بلا سَهَرٍ، وساعاتٌ مليئةٌ بالضَّجَرِ، تَمُرُّ ثقيلةً بلا وَجَلٍ، ولا تَحْمِلُ معها أحلامًا جميلةً، ولا تُوَزِّعُ كؤوسَ الماءِ والْخَمْرِ والْلَّبَنِ. جماهيرُ الظَّلامِ تَتَرَبَّصُ الفَجْرَ، وتَنْتَظِرُ خيطَ الأمَلِ الذّي يَفْصِلُ الأبيضَ عن الأسْوَدِ. والبومُ والغربانُ تَتَقَوْقَعُ خائفةً مِنَ النُّورِ والمَطَرِ.

وتَتَهادى المَلِكةُ مِنْ وراءِ الْجِبالِ، شمسًا مازجةً الأصفرَ على الأَحْمَرِ، وتزدادُ حَماسَتُها فتسْطعُ مُشْرِقةً إنَّه الضُّحى: سُلطانُ الصَّحوةِ، وشَاعِرُ النُّورِ وأرْوعُ الزّمَنِ.

هلُمّي يا مُبْدعةَ الكلماتِ، رتِلي آياتِ النّهارِ، فالصُّبحُ يَمْتَّدُ من السَّحَرِ إلى أن يُصْبِحَ الظِّلُ على قياسِ الرَّجُلِ وكلّ مَنْ يَدُبُّ فوقَ التُّرابِ مُنْتَعِلًا خُفَّ الهُدْهُدِ ومُعْتَمِرًا تاجَهُ. املأي البَيَاضَ بالسّوادِ، واهجُري النّقاءَ والصَّفاءَ، ودعي القَلَمَ يُخَرْبِشُ مَجْنونًا، ويَصْرُخُ مَحْمومًا، من شِّدَّةِ الأوجاعِ، الوطنُ والنّاسُ، وجميعُ مَنْ يَسْكُنُ القَلْبَ، ويُعَشْعِشُ في أعماقِ الوِجدانِ. رَبَضَتِ الفَرَسَ تَنْتَظِرُ فارِسَها، وحطَّ الهُدْهُدُ فَوقَ غَصْنِ شَجَرةِ الحياةِ، وَقَفَ الخائنُ مُتَدليًّا مَشنوقًا وارتاحَ الوَطَنُ من هذا الوباءِ.

انبَلَجَ الفجرُ وصارَتِ الشّمسُ في وَسَطِ السَّماءِ. تَمَكّنَ الحَرْفُ من التّغريدِ فَوقَ سطورِ الصّباحِ والمساءِ، واشتَعَلَ الورقُ بالحَرَكاتِ. قِصَصٌ وقصائدٌ وحكايا وأشْعارٌ ورواياتٌ، تَتَسابَقُ لِتُصاغَ في دواوينٍ وكُتُبٍ وجرائدٍ ومجلاتٍ.

سوف يكونُ لنا لقاءٌ مع العُشّاقِ في الفَجرِ ومع عساكرِ الظّلامِ، لِنُنْهِ مِعْضَلَةَ العبوديةِ لغيرِ اللهِ ومُشكلةَ الأصنامِ والأوثانِ. الكُفْرُ ليسَ حِكْرًا على البَشَرِ، ولا حتّى الإيمان؛ فالطَّيْر والحَجَرُ منها ما هو شيطانٌ ومنها ما هو ملاكٌ...

السّرُّ يَكْمُنُ في الميزانِ، مَنْ رَجَحَتْ كَفَتُهُ صَوْبَ اليمينِ فازَ، ومَنْ رَجَحَتْ صَوْبَ اليسارِ رَسَبَ. يا خالِقَ القَلَمِ والنّونِ، نَجِّنا من شرِّ الجُنونِ، واهدِنا إلى خيرِ الدّروبِ، الحياةُ تَليقُ بكلّ قلبٍ يَنْبُضُ بمعزوفةِ الرّوحِ. ويُغَرّدُ ألحانَ الخلودِ، ويَرْسَمُ لوحاتٍ سرمديّةٍ، ويُنّظم قصائدًا حريريّةً. لا مَوْتًا يُعيقُ أفكارَنا، ولا يأسًا يُحْبِطُ آمالَنا، ولا ألمًا يَمْنَعُنا من تحقيقِ أحلامِنا، ولا تعبًا يَشِلُّ طموحاتِنا.

غريبةٌ تلك الأقوامُ التّي تَدّعي أنّها من سلالةٍ من صِنْفِ الملوكِ والسّلاطينِ وهي في الهُوةِ والمُسْتَنْقَعاتِ تحيا وتعيشُ. الفخامةُ والسّعادةُ تليقُ بالبُسَطاءِ من

النّاسِ السّاعينَ لِلخيرِ والسّائرينَ نحو الشّمسِ، مُتَسَلّحين بنورِها، وكاتبينَ فوقَ خيوطِها. كلماتٌ من ذَهَبٍ، تَلْمَعُ وتَبْرُقُ وتَتَوَهّجُ وتُضيءُ عقولًا وتُنيرُ قلوبَ البَشَرِ.

شتّان بين فاقِدِ البَصَرِ وبين فاقِدِ البَصيرةِ؛ فالفَرْقُ شاسعٌ بين الأرضِ والسّماءِ، وبين النّورِ والظَّلامِ.

ملكةُ النّورِ تُجَلّلُ عاملاتِها وسلطانُ الظّلامِ يَكْشُفُ روّادَه، النّهارُ للأتقياءِ واللّيلُ لِلكافرينَ بنعمةِ البَصرِ.

الحمد لله أتممت خواطر روايتي اللؤلؤ المنثور وأتطلع الى ديوان يجمع حماستي وحكمتي قبح الدنيا وجمالها بروابط بيني وبين نعم الله من حواس واحساس شكراً لكل من لامست كلماتي شغاف قلبه وحركت وجدانه.

لطيفة خالد محبتي واللؤلؤ المنثور

أيلول /٢٠١٩

تمت